دعوة الحق

السنة الثامنة - العدد ٨٨ - ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م

نور من القرآن

في طريق الدعوة والدعاة

بقلم

د. محمد الحسين أبو سم

تصدرها رابطة العالم الإسلامي - مكة المكرمة



بسم الله الرحمن الرحمن

إهـــداء ودعـــاء

إلى نَبْعَى الحنان اللذين قدَّما لى أينع ثمار الإيمان ، حيث وجَّهانى إلى حفظ القرآن ، ودراسة علومه فى معاهد مختلفة ، إلى أن جاءت هذه الثمار التى أهديها لهما فى شكل دعاء وأمل ، ورجاءٍ وتضرُّع إلى الله أنْ يتفضَّل عليهما بفيضٍ من رحمته : «رب ارحمهما كما ربيانى صغيراً» .

كما أهدى هذه الثمار إلى مُعلميَّ وأساتذتى الأجلاء ؛ بدءاً بمدرسة تحفيظ القرآن الكريم ، ومروراً بالمدرسة الإبتدائية ، والمعاهد العلمية ، ثم جامعة أم درمان الإسلامية ، وانتهاءً بجامعات مصر العتيدة .

وأرجو أن أكون بهذا الاهداء قد وفيت بعضَ ما عليَّ من دينٍ لوالديَّ وأساتذتى الأجلاء ، آملاً من كل قارىء لهذه القبسات من نور القرآن الكريم أنْ يدْعُوَلى ولهم وللمؤمنين والمؤمنات ؛

«رب اغفر لى ولوالدى ولمن دخل بيتى مؤمناً وللمؤمنين والمؤمنات» .

محمد الحسين أبوسم



مقدمـــة

الحمد لله ، والصلاة والسلام على أشرف خلق الله ، نبينا محمد بن عبدالله ، وبعد :

فإذا كان خير ما يخدم الإسلام هو التعريف به فى أمانة وتجرد وموضوعية ، فإنَّ خير ما يخدم القرآن الكريم وينفع الناس به هو التعريف به ، ومحاولة اكتناه أسراره ، ببيان أهدافه ومراميه ووسائله فى الدعوة إلى مقاصده .

وأعتقد أن هذا البيان وذاك التعريف هما خير مدخلٍ للعمل فى مجال الدعوة إلى الله ؛ إذ سيكونان تكأة للقبسات المضيئة والتى سنستمدها من القرآن الكريم بإذن الله .

ومن ثم رأيت أن أجعل عنوان هذا البحث :

«نور من القرآن الكريم فى طريق الدعوة والدعاة»

وذلك تمشياً مع قول الله عزّ وجلّ : **﴿قد جاءكم من الله نورٌ وكتابٌ مبين.يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراطٍ مستقيم﴾**[1] .

وهداية القرآن الكريم ليست مقصورة على قوم دون قوم ، أو فئة دون فئة ولكنها للإنسانية جمعاء ، إذا آمنت به وترسمت خطاه ، ومن ثم كان استبعادى للتعريف الذى ذكره المناطقة للقرآن ، وكانت دعوتى إلى التعريف بالقرآن تعريفاً يكشف عن مناحى هذه الهداية ويوضح صلة القرآن الكريم بجميع جوانب الحياة ، وليس التعريف الذى يحصره فى دائرة الذهنية أو دائرة المطارحات الفكرية ثم التلاوة والترديد ، لأنَّ القرآن كتاب هداية

(١) المائدة : ١٥ ـ ١٦ .

لجميع البشر.

أما اقتصارنا فى عنوان هذا البحث على الدعاة فليس معناه التمييز أو الاخراج لفئة أو فئات والاقتصار على فئة أو فئات ، ولكن قصدنا من ذلك الاشارة إلى أن كل مؤمن إنَّما هو داعيةٌ إلى الله ، أو هكذا يجب أن يكون ؛ ذلك لأن كل مؤمن لا يخلو من مسئولية ، وذو المسئولية راعٍ وكل راعٍ مسئولٌ عن رعيته ، وأولى تلك المسئوليات مسئولية النفس وجهادها ، أو مجاهدتها وجهاد هواها ، قال تعالى : ﴿**فأمَّا من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإنّ الجنَّة هى المأوى**﴾[2] ثمَّ مسئولية الأهل والعشيرة وجهاد هوى نفوسهم الأمارة بالسوء ، قال تعالى مخاطباً نبيه الكريم : ﴿**وأنذر عشيرتك الأقربين**﴾[3] وقال الشاعر :

ابدأ بنفسك وأنهها عن غيِّها

فإذا انتـــهت فأنت حـــكيم

وذاك هو الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وهو لب لباب الدعوة إلى الله ، ومن ثم جاء الحديث عن هذا الجانب فى أكثر من موضع فى هذا البحث ، وكانت الاشارة إلى أنَّ جميع المؤمنين كانوا ولا يزالون يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، ولكن قد تضيق دائرتها عند أناسٍ فلا تتعدى حدود النفس أو الذات ، وتتسع الدائرة عند آخرين فتشمل المجتمع بأسره بغية التغيير والتأثير فى بناء المجتمع وتوجيهه نحو الخير والحق والعدل ، بينما تتلاشى الدائرة عند طائفة ثالثة ، فتصبح صفراً يرمز إلى خوائية المجموعة ويؤكد أنَّها فى حاجة إلى من ينتشلها من وهدتها.

ولكن كيف يكون هـــذا الانتشال ؟ أو كيف يكون إخراج

---

(٢) النازعات : ٤١ . (٣) الشعراء : ٢١٤ .

تلك المجموعة ؟

من وحل الغواية والضلال ؟ علماً بأنّه ليس فى الكون كُلّه شىء أصعب مراساً من الإنسان ، فهو عصىٌّ الانقياد كثير اللدد واللجاج ، لا يلقى قياده إلّا لهواه ، ولا يستسلم إلّا لشهواته ، وما أطوعه لنداء قلبه إذا ناداه ودعاه ولو إلى الارتكاس فى وحل الغواية والضلال ، إذن كيف يكون الانتشال للمرتكس فى وحل الضلال ؟

مقدمات هذا البحث ونتائجه تؤكد أنَّ ذلك يتم عن طريق الدعوة إلى الله المرتكزة على منهج القرآن الكريم والمستضيئة بنوره الذى سيبدد ـ بإذن الله ـ دياجير الجهل والتخلف والخرافة ، ويزيل كل تعتيم مصطنع ، مما يمكن جميع أفراد المجتمع المؤمن من التوجه بإذن الله ـ نحو العدل والخير ، فيشيع بين أفراده الإيمان الحقٌّ والتواصى بالحق والتواصى بالصبر ، دون تشدد ، ودون جنوح إلى التكفير للمجتمع بأسره ، أو ميلٍ إلى الهجرة عنه .

وخاصة من الداعية المخلص ، هو كالشمس تطلع من هنا وتخرج من هناك لتضىء للإنسانية جمعاء دون استثناء ، ومن ثم قررنا أن الانكماش أو السلبية لا تعبِّر عن أية ثمرة إيمانية ، بل تتنافى مع الإيمان الحق ؛ لأن ثمار الايمان لا تختفى ولا تختص بفئة دون فئة ، كالشمس لا تميز بين قوم دون قوم ، ولكنها تسير وفق قانون ربانى ، كذلك الداعية يجب أن ينطلق هنا وهناك وفق التوجيه الربانى ، وله فى رسول الله ﷺ أسوةٌ حسنة ، حيث كان يتصل بكل الناس ، الأميين وغير الأميين ، والمهتدين وغير المهتدين ، وكان يقول من يحملنى إلى الناس حتى أبلغ دعوة ربى ؟ وكم عانى فى سبيل ذلك ، ففى ثقيف مثلاً قذفوه بالحجارة فأصابت الحجارة

رأسه وقدميه ، بل أصابت كلماتٌ نابية أذنيهِ ، وهي في وقعها أشدُّ من وقع الحجارة ؛ لأنَّ جرح اللسان أنكى من جرح السنان ، لا سيما إذا كان ما يقال محض افتراء وأباطيل وكان القول من الغلمان والسفهاء .

فماذا فعل الرسول ﷺ تجاه تلك الحرب الضروس والحملة الشعواء من كبراء القوم والسفهاء ؟ هل استسلم فانصرف عن دعوته ؟ أم انكمش وانزوى مكتفياً بما يدور في مكنونات ضميره ؟ كلَّا ، لا هذا ولا ذاك ، لكنَّه ثبت وصبر سالكاً في دعوته كلَّ السُّبل المتاحة قائلاً : (**والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أدع هذا الأمر ما تركته**) فكان قدوةً ومثلاً أعلى للذين آمنوا وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة ، ومرشده في ذلك كله وهاديه القرآن الكريم : ﴿**واتَّبع ما يوحى إليك واصبر حتى يحكم الله**﴾ [4] ﴿**واصبر وما صبرك إلَّا بالله ولا تحزن عليهم**﴾ [5] ﴿**واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي**﴾ [6] ﴿**ولنصبرنَّ على ما آذيتمونا وعلى الله فليتوكل المتوكلون**﴾ [7] ﴿**إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة**﴾ [8] ﴿**سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدَّار**﴾ [9] .

ثم ماذا كان بعد ذلك ؟ كان ما يعجز عن تصوُّره الفكر البشري المحدود المكدود ؛ إذ تمت بفضل الله انتصارات عديدة ، منها : أنْ هدى الله إلى الإسلام أحد العمرين اللذين كانا يحاربان الإسلام في

---

(٤) يونس : ١٠٩ .
(٥) النحل : ١٢٧ .
(٦) الكهف : ٢٨ .
(٧) إبراهيم : ١٢ .
(٨) آل عمران : ١٢٥ .
(٩) الرعد : ٢٤ .

ضراوة وشراسة ، وكان أن خرج من ثقيف التى ألحقت الأذى برسول الله ﷺ محمد ابن القاسم الثقفى الذى فتح الهند ، ولايزال اسمه يجرى على لسان كل هندى تقريباً .

وهكذا يستطيع دعاة اليوم أن يستخرجوا من البيئات المجدبة المقفرة أناساً تنشرح صدورهم للإسلام فيقبلون عليه ويكونون عوناً للدعاة فى تحقيق المهمة المنوطة بهم على أكمل الوجوه واحسنها ، إذا ترسموا خطى الرسول ﷺ فى تبليغ دعوته ، وإذا استضاءوا بنور القرآن الكريم ، فابتعدوا عن الغرض والهوى ، وتعاونوا فيما بينهم على ما اتفقوا عليه وعذر بعضهم بعضاً فيما اختلفوا فيه ، علماً بأنَّ اختلاف سلفنا الصالح فيما استنبطوه من أحكام لم يكن وليد الهوى والشهوة ، ولا عن زيغ وانحراف ، ولا كان رمية من غير رام ، وإنما كان عن أسباب يعذر لمثلها المخطىء ويؤجر أجراً واحداً ، ويحمد المصيب ويؤجر أجرين بإذن الله تبارك وتعالى .

ولم نتعرض فى هذا البحث لأسباب الاختلاف بين الفقهاء من السلف الصالح ؛ لأنه لا يعنينا كثيراً فى هذه المباحث ، لكنا ركزنا على تنبيه أدعياء المعرفة والذين هم على الدعوة والدعاة محسوبون ، وقد طلبنا منهم أن يتَّقوا الله فى أنفسهم وفى الناس ، فلا يتصدَّوا للفتيا أو التوجيه والارشاد دون علم ، ودون معرفة تامة تمكنهم من أداء تلك المهمة دون غرض أو هوى ، ودون خطأ أو انحراف ، وخاصة عند الافتاء الذى استهونه كثير من الناس فى هذا الزمان ، بينما استعظمه كثير من سلفنا ، وما استعظموه إلّا لأن المفتى يوقع عن رب العالمين ، ولهذا ألف ابن القيم كتابه القيم (إعلام الموقعين عن رب العالمين) .

نسأل الله أن يوفقنا وأن يلهمنا الرشد والصواب ...)

تمهيـــــد
«تعريف بالقـــرآن الكريم»

١ ـ القرآن الكريم .
٢ ـ تعدد أسماء القرآن الكريم .
٣ ـ شبهة التشكيك فى القرآن الكريم وردها .
٤ ـ تكامل الوحى بالقرآن الكريم .

١ ـ القرآن الكريم ؟

كلمة قرآن فى اللغة العربية مصدر من الفعل قرأ يقرأ قراءة وقرآناً ، من ذلك قول الله عزّ وجلّ : **﴿فإذا قرأناه فاتبع قرآنه﴾**[1] . أى قراءته ، والقراءة هى ضم الحروف والكلمات بعضها بعضاً فى الترتيل .

ذاك هو التعريف اللغوى لكلمة قرآن ، أما فى الاصطلاح فقد عرف بأنه : كلام الله المعجز المنزل على خاتم الأنبياء والمرسلين بوساطة الأمين جبريل عليه السلام ، المتعبد بتلاوته ، المبدوء بسورة الفاتحة ، المختتم بسورة الناس .

---

(١) القيامة : ١٨ .

ولكننا فى صدد التعريف به نقول : هو كلام الله المعجز والموحى به على خاتم الأنبياء والمرسلين ، والذى أحكمت آياته ثم فُصِّلت من لدن حكيم خبير للتعبد بتلاوتها والعمل بمقتضاها فى جميع جوانب الحياة ، فى كل زمان ومكان .

فهو إذن دستور حياة المسلمين ، والنبع الذى لا يغيض[٢] ماؤه والجديد الذى لا تبلى جدبه ، هو حجة الله على الناس كافة ، وعلى العرب خاصة ؛ لأنه نزل بلغتهم ، فرفع ذكرهم ، وأعلا مجدهم ، وسوف يسألون يوم القيامة ماذا فعلوا بالقرآن الذى كساهم شرفاً ومجداً ، وجعل لهم بين العالمين ذكراً ، قال تعالى : ﴿**وإنَّه لذكر لك ولقومك وسوف تسألون**﴾[٣] .

وقد اجتهد الكثيرون من علماء هذه الأمة وأدبائها وشعرائها وبلغائها وفصحائها فى وصف هذا القرآن الكريم ووضع تعريف جامع مانع ينطبق على هذا القرآن وعلى هدايته وما فيه من أسرار واعجاز ، نرجو لهم المثوبة من عند الله على ذلك الاجتهاد ــ وقد بقيت تعاريفهم تضىء لنا الطريق وفى الوقت نفسه تدل على محدودية العقل البشرى ، ومن ثم نرى أن خير تعريف للقرآن الكريم هو ما جاء فى وصف المعصوم الذى لا ينطق عن الهوى ، نبينا محمد ﷺ ، حيث جاء وصفه تعريفاً للقرآن وتعريفاً بالقرآن لهذه الأمة التى تشرئب أعناقها وتهفو أفئدتها إلى هداية القرآن الكريم فى مناحى حياتها المختلفة ، وذلك فى قول الرسول ﷺ عن القرآن الكريم : **(كتاب الله فيه نبأ من قبلكم ، وخبر ما بعدكم ، وحكم من**

---

(٢) غاض يغيض بمعنى نقص وانحسر ، منه قوله تعالى ﴿**الله يعلم ما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام وما تزداد**﴾ وقوله : ﴿**وغيض الماء وقضى الأمر**﴾ .

(٣) الزخرف : ٤٤ .

بينكم ، هو الفصل ، ليس بالهزل ، من تركه من جبّار قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى فى غيره أضله الله ، هو حبل الله المتين ، وهو الذِّكر الحكيم ، وهو الصِّراط المستقيم ، وهو الذى لا تزيغ به الأهواء ، ولا تلتبس به الألسنة ، ولا يشبع منه العلماء ، ولا يخلق[٤] على كثرة الرَّد ، ولا تنقضى عجائبه ، وهو الذى لم تنته الجنُّ إذ سمعته حتى قالوا : ﴿**إنَّا سمعنا قرآناً عجبا يهدى إلى الرُّشد فآمنا به**﴾. **من قال به صدق ، ومن عمل به به أجر ، ومن حكم به عدل ، ومن دعا إليه هدى إلى صراط مستقيم**) [٥] .

هذا الوصف يؤكد أن القرآن ليس للتلاوة والترديد وحسب ، ولكنه دستور وهدايةٌ لمن تمسكوا به وردوا إليه كلَّ أمورهم ، قال تعالى مشيراً إلى جماع أهداف القرآن الكريم : ﴿**إنَّ هذا القرآن يهدى للَّتى هى أقوم**﴾ [٦] .

وهداية القرآن ليست مقصورة على قوم دون قوم ، ولا على فئة دون فئة ولكنها للإنسانية جمعاء قال تعالى : ﴿**كتابٌ أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النُّور**﴾ [٧] .

واخراج الناس من الظلمات إلى النور لا يكون لمجرد اقتناء القرآن المكتوب فى المصاحف ، ولا يكون لمجرد ترتيل القرآن المنقول إلينا بالتواتر ، ولكن يتحقق الاخراج من الظلمات إلى النور ـ بإذن الله ـ عبر العمل بمقتضى آيات القرآن الكريم والتمسك بتوجيهاتها فى جميع جوانب الحياة ، دون زيغ أو فتنة بمتشابهها ﴿**والرَّاسخون فى العلم**

---

(٤) أى لا تبلى ولا تذهب جدته رغم كثرة القراءة والتلاوة والترديد والرد .

(٥) رواه أحمد فى باب فضائل القرآن الكريم .

(٦) الاسراء : ٩ .

(٧) إبراهيم : ١ .

يقولون آمنّا به كلٌّ من عند ربّنا وما يذّكر إلّا أولوا الألباب﴾[8] .

ومن ثم حرصنا على أن يكون تعريفنا بالقرآن الكريم مشتملاً على أهم الدعائم التى يجب أن يراعيها كلُّ من يتصدى للتعريف بالقرآن ، ليتقرر منذ البدء أنَّ القرآن كتاب هداية وارشاد كما أراده رب العباد ، الذى خلقهم وتعهد بتربيتهم تربية خلقية وتشريعية ، وأنَّ تلك الهداية لا تكون ولا تتحقق إلّا عبر العمل بالقرآن الكريم إلى جانب الإيمان والاقتناع بأنه تشريع من الله لتربية الخلق تربية تشريعية لا يشاركه فيها أحد مهما أوتى من العلم والمعرفة ، وإلا إذا كان من المشركين الذين وصفهم الله بأنهم شرُّ البرية .

وبالطبع فإن مثل هذا الإيمان المصحوب بالعمل يستلزم ـ لا محالة ـ الإيمان والاقتناع بأن القرآن موحى به من عند الله على خاتم أنبيائه ورسله ، وأنه قد أعجز فصحاء العرب وبلغاءهم ، وأنَّ آياته قد أحكمت ثم فصلت من لدن حكيم خبير للتعبد بتلاوتها والعمل بمقتضاها .

وذاك هو الإيمان الكامل المتكامل ، حيث يقرن العمل بالإيمان ، والاقتناع ببقية الدعائم ، أما إذا انشطر الإيمان واقتصر على الاقتناع ببعض الدعائم فقط مثل : الاعجاز ، الوحى ، الأحكام ، التلاوة ، ولم يشمل جانب العمل أو دعامة التطبيق والتقيد بتوجيهات القرآن الكريم فإنّه لا قيمة تذكر لمثل هذا الايمان ، بل إنَّ مثل هذا الاقتناع لا يختلف كثيراً عن اقتناع الباحث المتجرد من غير المسلمين ؛ إذْ إنه قد يصل إلى تلك النتائج ــ دون ريب ـ إذا تجرد من الغرض والهوى ، ولكنه لا يتبع نتائج بحوثه

---

(٨) آل عمران : ٧ .

هذه بأى جانب تطبيق ؛ لأنَّ بحثه فى الأساس كان لمجرد الدراسة وتوسيع دائرة المعلومات فى مجال الدراسات الشرقية والاسلامية كما يقولون ـ

ونعتقد أن مثل هذه الدراسات لا تصلح تعريفاً بالقرآن الكريم للمؤمنين الذين تشرئب أعناقهم وتهفو أفئدتهم إلى معرفة مدى تغلغل القرآن الكريم فى جوانب حياتهم المختلفة دون انشطار لها ، وفى الأغلب الأعم لا تكون مثل هذه الدراسات أمينةً فى التعريف بالقرآن لا سيما وأنها تحصر القرآن فى دائرة المطارحات الفكرية العقلية ، ثم التلاوة والترديد دون عمل أن تطبيق . وما هكذا ينبغى أن يعرف بالقرآن ، خاصة فى هذا الزمان ، لذا ملنا إلى التعريف به عبر الدعائم الأساسية وسنزيد تلك الدعائم جلاء ووضوحاً خلال هذا البحث إن شاء الله ، ونشير الآن إلى أن «سر القرآن ولبابه الأصفى ومقصده الأقصى ، دعوة العباد إلى الجبار الأعلى ، رب الآخرة والأولى ، خالق السموات العلى والأرضين السفلى»[9] .

٢ ـ تعدد أسماء القرآن الكريم

تعدد الأسماء للشىء الواحد سمة من سمات اللغة العربية وخاصيَّة من خصائصها ، وقد جاء القرآن الكريم متحدياً العرب فى أخص خصائصهم هو البلاغة وكل ما تفرع عنها واندرج تحت فن القول والتعبير البيانى بطرق مختلفة ، من تصريح وكناية ، أو مشترك لفظى ومترادف الخ ..

---

(٩) أبوحامد الغزالى ـ جواهر القرآن ـ ط ثانية ـ مطبعة الرحمانية بمصر سنة ١٩٣٣م .

وتعُدد الأسماء ضربٌ من الترادف اللغوى المميز فى القرآن الكريم بدلالات جديدة فى كل اسم من اسمائه المتعددة .

فمن الذى وضع هذه الأسماء المتعددة والمميزة بتلك الدلالات ؟ وما هى الأسماء ؟

أوحى الله سبحانه وتعالى بالقرآن الكريم وتولّى حفظه كما تولى وضع أسماء بعينها له ، فلم يك ثمة مجال للتحريف أو التبديل فى القرآن الكريم بالحذف أو الزيادة ، حيث جاء كاملاً متحدياً حتى فى وضع الأسماء وتعددها ، من تلك الأسماء ما يلى :

١ ـ القرآن ﴿**إنَّ هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم**﴾[١٠] .

٢ ـ الفرقان ﴿**تبارك الذى نزَّل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا**﴾[١١] .

٣ ـ الذكر ﴿**إنَّا نحن نزلنا الذِّكر وإنَّا له لحافظون**﴾[١٢] .

٤ ـ الكتاب ﴿**الم ذلك الكتاب لا ريب فيه هدىً للمتقين**﴾[١٣] .

٥ ـ التنزيل ﴿**وإنَّه لتنزيل ربِّ العالمين**﴾[١٤] .

٦ ـ النور ﴿**قد جاءكم من الله نورٌ وكتابٌ مبين**﴾[١٥] .

٧ ـ الروح ﴿**وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا**﴾[١٦] .

وغيرها من التسميات والصفات التى ذكرها الله سبحانه وتعالى للقرآن الكريم[١٧] تحدياً وبياناً لأهداف القرآن الكريم

---

(١٠) الاسراء : ٩ .
(١١) الفرقان : ١ .
(١٢) الحجر : ٩ .
(١٣) البقرة : ١ .
(١٤) الشعراء : ١٩٢ .
(١٥) المائدة : ١٥ .
(١٦) الشورى ٥٢

(١٧) راجع كتاب الاتقان فى علوم القرآن للسيوطى ، وكتاب البرهان للزركشى ، وكتاب الهدى والبيان فى أسماء القرآن ـ لصالح بن إبراهيم البليهى ، حيث عنى كل منهم بذكر أعداد كبيرة من تلك الأسماء ، مع الاستشهاد بالآيات القرآنية للأسماء التى استخرجوها .

والتى رأينا أن جماعها يتمركز فى الهداية والارشاد أو الاخراج من الظلمات إلى النور عبر التربية التشريعية للخلق أينما كانوا وفى أى زمان كانوا .

فهذه التربية وتلك التسمية والتعهد بحفظ القرآن نعمٌ إلهية كفت المؤمنين مؤونة حفظ القرآن الكريم ، وصدَّت عنهم مغبة ما كان سيقع من خلاف وشجار لولا العناية الإلهية بالحفظ والهداية .

ومن ثم لم يقم أى خلافٍ بين المسلمين طوال قرون خلت ، ولن يقوم بإذن الله ـ فى النص القرآنى ذاته ، لكنهم اختلفوا فى فهم معانى بعض النصوص ، تبعاً للاختلاف فى فهم الدلالات اللغوية أو القواعد الأصولية لاستنباط الأحكام ، إلَّا أن هذا الأمر لم يكن على اطلاقه ؛ لأن هناك ما هو قطعىُّ الدّلالة ولا مجال للاختلاف فيه البتة ، وقد وضح ذلك كله سلفنا الصالح ، أجزل الله لهم المثوبة والعطاء .

٣ ـ شبهة التشكيك فى القرآن وردها :

لقد تشكلك المغرضون ـ قديماً وحديثاً ـ فى القرآن الكريم وشككوا فى الوحى به ، ووصفوا النبى ﷺ بأنه شاعر تارة ، وساحر أخرى وبأنه مصاب بصرع أو نوبات عصبية تعتريه من وقت لآخر ، كبرت كلمةً تخرج من أفواههم ، إنْ يقولون إلَّا كذباً .

وقد تولى الله سبحانه وتعالى الردَّ على قدامى المتشككين الحاقدين ، أما المحدثون من متعصبى المستشرقين فقد هيَّأ الله من يردُّ عليهم ، ومن بنى ، جلدتهم أيضاً ، منهم المستشرق

السير «وليام موير» صاحب كتاب حياة محمد ، حيث تحدث عن القرآن ودقة وصوله إلينا ، وأكد أن الذين هاجموا الإسلام ورسوله بعيدون كل البعد عن البحث العلمى النزيه ، وأوضح أن ما ذهب إليه البعض من تصوير حالة الرسول ﷺ إبَّان الوحى بأنها حالة صرع أو نوبة من نوباته تصويرٌ خاطىء من الناحية العلمية ؛ إذ إنّ نوعية الصدع لا تترك عند من تصيبه أى تذكر لما مر به أثناءها بل إنَّه ينسى تلك الفترة من حياته بعد إفاقته من نوبته نسياناً تاماً ، ولا يعرف شيئاً مما حدث خلالها ، ذلك لأن حركة الشعور تتعطل خلال تلك اللحظة تمام التعطل .

ونعتقد أن هذه الحقائق التى أشار إليها (وليام موير» لا تخفى على بنى عمومته ، ولكنها المكابرة والعناد ، وعدم التجرد والموضوعية فى البحث ، وإلَّا لما أنكروا على محمد ﷺ شيئاً لم ينكروه على أنبيائهم والأنبياء السابقين لأنبيائهم ؛ إذ إنّ ظاهرة الوحى قديمة قبل محمد عليه الصلاة والسلام ، **﴿إنّا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوحٍ والنبيين من بعده وأوحينا إلى إبراهيم واسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان وآتينا داوود زبوراً . ورسلًا قد قصصناهم عليك من قبل ورسلًا لم نقصصهم عليك وكلَّمَ الله موسى تكليماً . رسلًا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حُجة بعد الرُّسل وكان الله عزيزاً حكيماً﴾** [١٨] .

الآية الأخيرة تشير إلى الحكمة من ارسال الرسل وهى قطع

---

(١٨) النساء : ١٦٣ ـ ١٦٥ .

حجة البشر بإرسال الرسل ، وتؤكد ضمناً حاجة البشرية جمعاء إلى اتصال السماء بالأرض .

والاكتشافات العلمية التى يعرفها جيداً بنو عمومة «وليام موير» . تؤكد ضرورة هذا الاتصال ، ولن يكون ذلك الاتصال إلّا عبر الوحى بطريق من طرقه المعروفة ..

فلا غرابة إذن فى الوحى من حيث هو ، كما لا غرابة فى الوحى إلى محمد ﷺ **﴿أكان للنَّاس عجباً أن أوحينا إلى رجلٍ منهم أن أنذر النَّاس وبشر الذين آمنوا أنَّ لهم قدم صدقٍ عند ربهم قال الكافرون إنَّ هذا لساحرٌ مبين﴾**(١٩) .

هذا وقد تثَار شكوكٌ وتساؤلات حول نزول الملك على محمد ﷺ وهو بين ملأٍ من أصحابه دون أن يراه واحد منهم ، ولا غرابة فى مثل تلك التساؤلات إذا كانت ابتغاء الاطمئنان القلبى ، أما إذا كان السائل يرتِّبُ عليها حكماً بالرفض أو الانكار لمجىء الملك ومن ثم الوحى طالما كانت أعين الموجودين مع النبى ﷺ ــ لحظة الوحى ــ لم تر الملك فيكون تساؤله عندئذ مردوداً وحكمه مرفوضاً ؛ ذلك لأنه ليس من شروط الموجودات أن تُرى بالأبصار حتى يحكم لها بالوجود ، خاصةً وأنَّ قوَّة الابصار محدودة بل «إن علماء الفيزياء قد أثبتوا أن بعض الألوان لا تراها كل العيون ، وأن هناك إشعاعات ضوئية دون الضوء الأحمر ، وفوق الأشعة البنفسجية لا تراها عيوننا ، ولا شىء يثبت أنها كذلك بالنسبة إلى جميع العيون ، أو أليس هناك عيون أقل أو أكثر حساسية من عيونٍ أخرى ؟

---

(١٩) يونس : ٢ .

إذن فما المانع أن يرى محمد وحده الملك ويفهم ما يتكلم به ، ولا يراه الآخرون ، أو لا يدركون ماذا تعني تلك الهينمة أو الدوى ؟»[٢٠] .

وقبل هؤلاء المستشرقين بمئات السنين كان كفار قريش يزعمون هذا الزعم نفسه ، ومن ثمَّ طلبوا من الرسول ﷺ أن يأتيهم بقرآن آخر ، لكنه أعلن عجزه عن الاستجابة لتلك الرغبة ؛ لأنها فوق مقدوره البشري ، فلو كان القرآن من تأليفه لاستجاب إلى رغبتهم ، وقد أخبرنا الله بهذه المواقف حيث قال : ﴿**وإذا تُتْلى عليهم آياتُنا بيناتٍ قال الذين لا يرجون لقاءنا إئْتِ بقرآنٍ غير هذا أو بدِّلْهُ ، قل ما يكونُ لىَّ أن أبدِّله من تلقاء نفسى إن اتَّبعُ إلَّا ما يُوحى إلىَّ . إنِّى أخاف إن عصيت ربّى عذاب يومٍ عظيمٍ ، قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به فقد لبثت فيكم عمراً من قبله أفلا تعقلون**﴾[٢١] .

وقد قال الإمام الفخر الرازى : إنَّ الكفار شاهدوا رسول الله ﷺ من أول عمره إلى ذلك الوقت وكانوا عالمين بأحواله وأنه ما طالع كتاباً ، ولا تتلمذ لأستاذ ولا تعلم من أحد ، ثم بعد أنقرض أربعين سنة جاءهم بهذا الكتاب العظيم المشتمل على نفائس علم الأصول ، ودقائق علم الأحكام ، ولطائف علم الأخلاق وأسرار قصص الأولين ؛ وعجز عن معارضته العلماء والفصحاء والبلغاء ، وكل من له عقل سليم يعلم أن مثل هذا لا يكون إلَّا على سبيل الوحى والتنزيل ...[٢٢] وكون

(٢٠) مالك بن نبي ـ الظاهرة القرآنية ص ١٧٨ .
(٢١) يونس : ١٥ ـ ١٦ .
(٢٢) الرازى : ١٧ ـ ٥٧ .

الرسول ﷺ لم يطالع كتاباً ولم يتتلمذ على أستاذ هذا أمرٌ ثابتٌ بالقرآن الكريم ، وهو أوثق مصدر لمعرفة حياة الرَّسول ﷺ ، قال تعالى : **﴿وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم ..﴾** [٢٣] وقال : **﴿وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان﴾** [٢٤] وقال : **﴿وما كنت ترجوا أن يُلقى إليك الكتابُ إلَّا رحمةً من ربِّك﴾** [٢٥] أى ما كنت تطمع أن تنال النبوة ولا أن ينزل عليك القرآن ، لكن رحمك الله بذلك ورحم العباد ببعثتك فأنزل عليك القرآن الكريم هدىً ورحمةً للعالمين وعلمك ما لم تكن تعلم .

ومن ثَم كان «موقف الرسول المليء بالخشية والتقديس نحو القرآن المنزل عليه ، وإيمانه بأنه كلام الله ذاته ، ولم يكن فى مقدوره أن يدخل عليه أى تعديل ، وعند تفسيره كان موقفه كموقف أى مفسر أمام نص ليس له ، وكان يرتعد أن ينسب إلى الله قولاً لم يقله مهما كان هذا القول بسيطاً ، كما كان يشعر بحرس من السماء وبمراقبين يقظين يحيطون به ويراقبونه فيما يقوم به تجاه رسالته» [٢٦] .

كما أن حرص النبى ﷺ على سرعة حفظه وتبليغه للناس كما أُنزل يعد دليلاً قوياً على أن القرآن ليس من تأليفه ؛ إذ لو كان من تأليفه لما احتاج إلى حفظه أو التلهف إلى سماعه بتلك الصورة ، ولو احتاج إلى حفظه لما وجد فيه مشقة أو معاناة ، والثابت أنه كان يجد

---

(٢٣) النساء : ١١٣ .

(٢٤) الشورى : ٥٢ .

(٢٥) القصص : ٨٦ .

(٢٦) د . محمد عبدالله دراز - مدخل إلى القرآن الكريم ص ١٦٩ .

فى ذلك معاناة شديدة حتى أن جبينه ليتفصد عرقاً فى اليوم الشديد البرد ، وقد أراد الله أن يخفف عنه هذا العناء فأنزل عليه قوله تعالى : **﴿لا تحرك به لسانك لتعجل به ، إنَّ علينا جمعه وقرآنه ، فإذا قرأناه فاتَّبع قرآنه ، ثم إنَّ علينا بيانه»**[٢٧] وذاك تعليم للرسول ﷺ كيف يتلقى الوحى من الملك ، وتخفيف للشدة والمعاناة التى كان يجدها فى سبيل تلقى الوحى وحفظ القرآن الكريم ، وقد روى عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال : «كان رسول الله ﷺ يعانى من التنزيل شدَّةً فكان يحرك شفتيه ، فأنزل الله عزَّ وجل : **﴿لا تحرك به لسانك لتعجل به ، إنَّ علينا جمعه وقرآنه﴾**[٢٨]

وبعد هذا كله نشير إلى أن محمداً ﷺ كان يعلن دوماً أن القرآن كلام الله ، وأنه تلقاه بواسطة جبريل ، وليس له سوى مهمة النقل والتبليغ ، وقد كان أميناً فى نقله عن جبريل ، وتبليغه إلى الناس كافة ؛ ذلك لأن صفتى الصدق والأمانة قد لازمتاه طوال أربعين عاماً قبل البعثة ، وقد شهد له بذلك جميع قومه ، فما الذى يجعله يكذب أو يتحوَّل عما كان عليه بعد أن بلغ سن الرشد ؟ كما أن المؤرخين مجمعون[٢٩] على أنه كان أميًّا لم يقرأ كتاباً ولا خطه بيمينه ، ولم يدرس تاريخ الأمم الغابرة ولم يدرس قانوناً أو تشريعاً لتنظيم أى جانب من جوانب الحياة ، فضلاً عن الحياة كلها ، فمن أين له بكل هذه الأشياء إذا لم تكن هناك صلة بينه وبين السماء ووحى ومدد من علام الغيوب ؟ بل أيَّة عبقريةٍ تلك التى تستطيع أن

---

(٢٧) القيامة : ١٦ ــ ١٩ .

(٢٨) البخارى ومسلم .

(٢٩) راجع تاريخ الطبرى ، ثم الكامل ــ لابن أثير ، وسيرة ابن هشام .

تلهم صاحبها الحديث الدقيق عن الكون وما كان وما هو كائن أو سيكون ؟ وهل سجل أو سطر واحد من العباقرة قبل النبى محمد ﷺ ـ شيئاً يشبه ما جاء به محمد ﷺ ليقال أن عمل محمد ما كان إلّا امتداداً لعمل بشرى مسبوق . وليس لمحمد فيه سوى إضافة يسيرة هى التى ميزته ، أو لا إضافة ولا تمييز؟!!

لم يقل أحد ذلك ، حتى الذين كفروا به وناصبوه العداء لم يستطيعوا أن يزعموا هذا الزعم ، على الرغم مما هو ثابت من أن الفكر البشرى ما هو إلّا سلسلة متصلة الحلقات ، وأن العرب القدامى كانوا يتناقلون الأفكار ويعيدونها ويكررونها :

ما أرانا نقـــول إلّا معاراً

أو معاداً من قولنا مكـــروراً

وأعتقد أن ما يساق من أدلة وبراهين عقلية إنّما يحتاج إليها الكافر أو المشرك أو من كان ضعيف الإيمان ، أما المؤمن القوى الإيمان فإنه يؤمن بالله رباً ومحمد رسولاً ، وبأن هذا الرسول ﷺ لا ينطق عن الهوى إن هو إلّا وحى يوحى ، ومن ثم لا تأخذه شبهة فى القرآن ، لكنه كلما قرأه ازداد إيماناً ، واستضاء بنور القرآن الذى يهدى للتى هى أقوم ، ففى القرآن آيات كثيرة تهديه وترشده إلى أن القرآن ليس من قول البشر ولكنه تنزيل من رب العالمين من ذلك قول الله عزّ وجلّ :

﴿وإنه لتنزيل ربِّ العالمين.نزل به الرُّوح الأمين.على قلبك لتكون من المنذرين.بلسانٍ عربىٍّ مبين﴾[٣٠] وقوله : **﴿وإنَّك لتُلَقَّى القرآن من لدن حكيمٍ عليم﴾**[٣١] وقوله : **﴿وإنْ أحد من**

---

(٣٠) الشعراء : ١٩٢ ـ ١٩٤ .
(٣١) النمل : ٦ .

المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله﴾[٣٢] وقوله : ﴿وإذا تُتْلى عليه آياتنا بيناتٍ قال الذين لا يرجون لقاءنا ائتِ بقرآنٍ غير هذا أو بدِّله قل ما يكون لى أن أُبدله من تلقاء نفسى إنْ أتَّبعُ إلَّا ما يوحى إليَّ إنى أخاف إن عصيت ربى عذاب يومٍ عظيم﴾[٣٣] وقوله ﴿فلا أقسم بما تبصرون ، وما لا تبصرون ، إنَّه لقول رسولٍ كريمٍ ، وما هو بقول شاعرٍ قليلاً ما تؤمنون ، ولا بقول كاهنٍ قليلاً ما تذكَّرون ، تنزيل من ربِّ العالمين ، ولو تقول علينا بعض الأقاويل ، لأخذنا منه باليمين ، ثم لقطعنا منه الوتين ، فما منكم من أحدٍ عنه حاجزين ، وإنَّه لتذكرةٌ للمتَّقين ، وإنَّا لنعلم أنَّ منكم مكذبين ، وإنَّه لحسرةٌ على الكافرين ، وإنَّه لحقُّ اليقين ، فسبح باسم ربِّك العظيم﴾[٣٤] .

فالله سبحانه وتعالى قد أقسم لعباده بما يبصرون وما لا يبصرون ـ مؤكداً لهم أنَّ هذا القرآن كلامه ووحيه وتنزيله على عبده ورسوله الذى اصطفاه لتبليغ الرسالة وأداء الأمانة ، ومشيراً إلى صدق هذا الرسول ورشده وأنه مؤيَّدٌ من ربه بالمعجزات الباهرات والدلالات القاطعات ، ذاكراً أن هذا النبى لا يتقوَّل على الله ، وليس هناك ما يدعوه إلى فعل ذلك ، ولو فعل لعجَّل عليه بالعقوبة وأخذه أخذ عزيز مقتدر ..

٤ ـ تكامل الوحـــى :

نعنى بذلك التكامل اكتمال نزول القرآن على قلب النبى محمد ﷺ ، حيث كان ينزل مفرقاً وبحسب مقتضيات الأحوال ، قال

(٣٢) التوبة : ٦ .
(٣٣) يونس : ١٥ .
(٣٤) الحاقة : ٣٨ ـ ٥٢ .

تعالى : ﴿**وقال الَّذين كفروا لولا نُزِّل عليه القرآن جملة واحدةً كذلك لنثبت به فؤادك ورتَّلناه ترتيلًا**﴾[٣٥] وقال : ﴿**وقرآناً فرقناه لتقرأه على النَّاس على مكثٍ ونزلناه تنزيلًا**﴾[٣٦]

فالقران إذن كان ينزل على النبى ﷺ منجماً : آية وآيتان ، أو أكثر ، أو سورة بأكملها ، لحكمةٍ إلهية ، وتمشياً مع مقتضيات أحوال الداعية والمدعوين فى آن واحد ، ذلك لأن الرسول ﷺ كان فى حاجةٍ إلى أن يثبته ربُّه ويشد من أزره حتى يقوى على الصبر والمصابرة ، ويثبت فى وجه أعداء الله من قومه الذين ألحقوا به أذى جسيماً ، بل ناصبوه العداء ، وقد ضاق صدر الرسول ﷺ بطعن المشركين فى القرآن الكريم ، فشكاهم إلى الله عزّ وجلّ طالباً التثبيت والتأييد ﴿**يا ربِّ إنَّ قومي اتخذوا هذا القرآن مهجوراً**﴾[٣٧] وقد عظَّمَ الله شكوى نبيه الكريم وخوَّف قومه مما فعلوا وقالوا ، حتى لا يلحق بهم الدمار أو الهلاك ؛ لأن الأنبياء إذا التجأوا إلى الله وشكوا قومهم حلَّ بهم العذاب ولم يمهلوا ، وثبَّت نبيه الكريم بتوجيهات عديدة ، منها ما جاء فى قوله تعالى : ﴿**ولقد نعلمُ أنَّك يضيق صدرك بما يقولون ، فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين ، واعبد ربَّك حتى يأتيك اليقين**﴾[٣٨] وفى قوله : ﴿**وكذلك جعلنا لكل نبيٍّ عدواً شياطين الإنسِ والجنِّ**﴾[٣٩] وفى قوله : ﴿**وكذلك جعلنا لكلِّ نبيٍّ عدواً من المجرمين وكفى بربِّك هادياً ونصيراً.وقال الَّذين كفروا لولا نُزِّلَ عليه القرآن جملةً واحدةً كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا ..**﴾[٤٠] .

---

(٣٥) الفرقان : ٣٢ .
(٣٦) الاسراء : ١٠٦ .
(٣٧) الفرقان : ٣٠ .
(٣٨) الحجر : ٩٧ ـ ٩٩ .
(٣٩) الأنعام : ١١٢ .
(٤٠) الفرقان : ٣٢ .

فالحكمة الكبرى من تنزيل القرآن الكريم منجماً هى مذدغبيّلغتضيدتدلأحوال ، ثم تثبيت قلب النبى ﷺ ، وتثبيت قلوب المؤمنين أيضاً ، حسب تفسير ابن كثير لقوله تعالى ﴿**لولا نُزِّل عليه القرآن جملةً واحدةً**﴾ حيث قال :

«أى هلا أنزل عليه هذا الكتاب الذى أوحى إليه جملة واحدة ، كما نزلت الكتب قبله جملة واحدة ، كالتوراة والانجيل والزبور وغيرهما من الكتب الإلهية ؟ فأجابهم الله تعالى عن ذلك بأنه إنما نزل منجماً فى ثلاث وعشرين سنة بحسب الوقائع والحوادث وما يحتاج إليه من الأحكام ليثبت قلوب المؤمنين به»[٤١] .

كما أن التنجيم يساعد الرسول ﷺ فى حفظ القرآن أو استظهاره ، ويعينه على تبليغه كما أُنزل ، ومن ثم كان حريصاً الحرص كلَّه على تلقف الوحى ساعة نزوله وتحريك لسانه بالقرآن الكريم إلى أن جاءه توجيه الله عزّ وجلّ : ﴿**لا تُحرِّك به لسانك لتعجل به إنَّ علينا جمعه وقرآنه ، فإذا قرأناه فاتبع قرآنه ، ثم إنَّ علينا بيانه**﴾[٤٢] وذاك يقتضى مهلة وتدرجاً فى انزال القرآن الكريم .

يضاف إلى ذلك أن القرآن الكريم إنما جاء ليخرج الناس من الظلمات إلى النور ، بدعوتهم إلى أن يغيروا ما بأنفسهم ليتغير ما حولهم .

وهناك آراء أخرى يمكن الرجوع إليها لمعرفتها ومعرفة مناقشة العلماء لها لمن أراد التوسع[٤٣] .

وخلاصة القول أنَّ القرآن الكريم كان فى اللوح المحفوظ ثم أنزل

---

(٤١) ابن كثير جـ ٢ ص ٦٣١ .
(٤٢) القيامة : ١٧ .
(٤٣) راجع التسهيل لعلوم التنزيل ، الاتقان فى علوم القرآن للسيوطى ١٦/١ ـ ٨٣ .

على قلب الرسول ﷺ منجماً ، ولا تعارض بين هذا التنزيل وذاك ، لأن التنزيل على قلب الرسول ﷺ كان حسب مقتضيات أحوال الدعوة والداعية والمدعوين ، أما التنزيل فى اللوح المحفوظ فقد كان جملة واحدة للحفظ ، بدليل قوله تعالى . **﴿بل هو قرآن مجيد فى لوحٍ محفوظٍ﴾**(٤٤) قال ابن كثير : «أى هو فى الملأ الأعلى محفوظ من الزيادة والنقص والتحريف والتبديل ، روى ابن أبى حاتم عن عبدالرحمن بن سلمان قال : «ما من شىء قضى الله ، القرآن فما قبله وما بعده ، إلَّا هو فى اللوح المحفوظ ، واللوح المحفوظ بين عينى إسرافيل لا يؤذن له بالنظر فيه» وقال : الحسن البصرى : إنَّ هذا القرآن المجيد عند الله فى لوح محفوظ ، ينزل ما يشاء على من يشاء من خلقه»(٤٥) .

وفى السنة النبوية ما يؤكد هذا النزول ، ويدل على أنه غير النزول الذى كان على قلب الرسول ﷺ ، فعن ابن عباس موقوفاً «أنزل القرآن جملة واحدة إلى السماء الدنيا ليلة القدر ، ثم أنزل بعد ذلك بعشرين سنة ، ثم قرأ : **﴿ولا يأتونك بمثل إلَّا جئناك بالحق وأحسن تفسيراً﴾** (٤٦) **﴿وقرآناً فرقناه لتقرأه على النَّاس على مكث ونزلناه تنزيلاً﴾** (٤٧) .

ومن هنا جاء اختلاف العلماء حول كيفية تلقَى جبريل الوحى بالقرآن الكريم :

فمنهم من ذهب إلى أن جبريل كان يتلقَّى القرآن سماعاً من الله عزّ

---

(٤٤) البروج : ٢١ ـ ٢٢ .
(٤٥) ابن كثير : مختصر ابن كثير : م ٣ ص ٦٢٦ .
(٤٦) الفرقان : ٣٣ .
(٤٧) الاسراء : ١٠٦ .

وجل بلفظه المخصوص ، وينقله إلى محمد ﷺ دون تبديل أو تعديل .

ومنهم من قال : إنَّ جبريل قد حفظه من اللوح المحفوظ ، كما أنَّ هناك من قال : ألقى إليه المعنى ثم عبَّر عن ذلك بألفاظ من عنده .

والحق مع أصحاب الرأى الأول ، وهو رأى أهل السنة والجماعة ، يؤيده حديث النواس بن سمعان الذى قال : قال رسول الله ﷺ : «**إذا أراد الله أن يوحى بالأمر تكلم الوحى ، أخذت السموات منه رجفة ـ أو قال رعدة ـ شديدة خوفاً من الله عزّ وجلّ ، فإذا سمع ذلك أهل السموات صعقوا وخرُّوا منه سُجَّداً ، فيكون أول من يرفع رأسه جبريل ، فيكلمه الله من وحيه بما أراد ، ثم يمر جبريل على الملائكة كلما مرَّ بسماءٍ سألته ملائكتها : ماذا قال ربنا يا جبريل ؟ فيقول جبريل : قال الحق وهو العلى الكبير ، فيقولون كلهم مثل ما قال جبريل ، فينتهى جبريل بالوحى إلى حيث أمره الله عزّ وجلّ ..**»[٤٨] .

أما الرأى الثانى فمردود ، لا لأنَّهُ متعارض مع حقائق الأشياء وحسب ، ولكن لأنه قاصر أو ناقص ؛ إذْ لا معنى لحفظه دون نقله إلى النبى ﷺ ، وإلَّا لكان شأن القرآن شأن الغيبيات الأخرى المثبتة فى اللوح المحفوظ .

أما الرأى الثالث فإنه غير مقبول ، ولا يسنده أىُّ دليل نقلى أو عقلى يشير إلى أن القرآن كلام الله بالمعنى ، والالفاظ لجبريل أو محمد ، بل هذا مناف لما جاء فى آيات كثيرة تُجرِّدُ الرسول من نسبة

---

(٤٨) أخرجه الحاكم والبيهقى .

القرآن إليه ، وتؤكد أنه ليس له فى القرآن حرف أو كلمة ، إنّما هو متلقٍ لكلام الله شكلاً ومضموناً ، معنى وألفاظاً ، وإلّا لما تعجَّل فى حفظه خشية نسيانه كلمة منه ، ولما قال لكفّار قريش عندما طلبوا منه أن يبدل القرآن : إنَّ القرآن فوق طاقتى ، وليس فى مقدورى أن أبدله أو أبدل حرفاً فيه ، وما أنا إلّا ناقلٌ أمين ، اتبع ما يوحى إلى منه ، قال تعالى :

﴿قال الّذين لا يرجون لقاءنا ائْتِ بقرآنٍ غير هذا أو بدله ، قُل ما يكون لى أن أبدِّله من تلقاء نفسى ، إن اتبع إلّا ما يوحى إلىَّ إنِّى أخافُ إن عصيت ربِّى عذاب يومٍ عظيمٍ ...﴾ [٤٩] .

(٤٩) يونس - الآية رقم ١٥ .

الفصـــل الأول
التعبـد بتـــلاوة القـرآن الكريــم

(أ) الأمر الإلهى للرسول الكريم بتلاوة القرآن الكريم .
(ب) ثبوت الأجر لمجرد تلاوة القرآن الكريم .
(جـ) أهمية الاحتفاء بالقرآن الكريم وكيفيته .
(د) الحث على تلاوة التدبر والتفكر .
(هـ) لماذا انفرد القرآن بخاصية الأجر لمجرد التلاوة ؟

(أ) الأمر الإلهى للرسول الكريم بتلاوة القرآن :

التلاوة هى الدعامة الثالثة من دعائم التعريف بالقرآن الكريم ، وهى ليست أمراً مبتدعاً ، ولكنها من الأمور التى فعلها الرسول ﷺ بأمر من الله تبارك وتعالى ، وقد جاء هذا الأمر فى آيات كثيرة من القرآن الكريم ، منها قوله تعالى : **﴿واتْلُ ما يوحى إليك من كتاب ربِّك﴾** [1] **﴿اُتْلُ ما أوحى إليك من الكتاب﴾** [2] **﴿أو لم يكفهم أنَّا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم﴾** [3] **﴿إنما أمرتُ أن أعبد ربَّ هذه البلدة الذى حرَّمها وله كل شىء وأمرت أن أكون من**

---

(١) الكهف : ٢٧ .
(٢) العنكبوت : ٤٥
(٣) العنكبوت : ٥١ .

المسلمين . وأنْ أتلُو القُرآن فمن اهتدى فإنَّما يهتدى لنفسه ومن ضلَّ فقل إنَّما أنا من المنذرين﴾[4] .

أى وأمرت أيضاً بتلاوة القرآن لتنكشف لى حقائقه الرائعة ، وأن أقرأه على الناس ، فمن اهتدى بالقرآن واستنار قلبه بالإيمان فإنَّ ثمرة هدايته راجعة إليه ، ومن ضلَّ عن طريق الهدى فوبال ضلاله مختص به[5] .

وقد امتثل الرسول الكريم أمر ربه له بالتلاوة والترتيل : **﴿يا أيُّها المزمل قُم الليل إلَّا قليلاً ، نصفه أو انقص منه قليلاً ، أو زد عليه ورتِّل القرآن ترتيلا﴾**[6] قال الخازن «**لما أمره تعالى بقيام الليل اتبعه بترتيل القرآن حتى يتمكن المصلى من حضور القلب والتفكر والتأمل فى حقائق الآيات ومعانيها ، فعند الوصول إلى ذكر الله يستشعر بقلبه عظمة الله وجلاله ، وعند ذكر الوعد والوعيد يحصل له الرجاء والخوف ، وعند ذكر القصص والامثال يحصل له الاعتبار ، فيستنير القلب بنور معرفة الله**»[7] وثبت أن الرسول ﷺ كان يقيم الليل مرتلاً القرآن حتى تورمت قدماه ، روى الامام أحمد عن زرارة بن أوفى ، عن سعيد ابن هشام قال قلت : يا أم المؤمنين انبئينى عن خلق رسول الله ﷺ ، قالت : ألست تقرأ القرآن ؟ قلت بلى ، قالت : فإنَّ خُلُقَ رسول الله ﷺ كان القرآن ، فهممت أن أقوم ، ثم بدا لى قيام رسول الله ﷺ ، فقال : ألست تقرأ

(٤) النمل : ٩١ - ٩٢ .
(٥) محمد على الصابونى - صفوة التفاسير - جـ ٢ ص ٤٢١ .
(٦) المزمل : ١ - ٤ .
(٧) تفسير الخازن ١٦٥/٤ .

هذه السورة ﴿يا أيها المزمل﴾ ؟ قلت بلى ، قالت : فإنَّ الله افترض قيام الليل فى أول هذه السورة ، فقام رسول الله ﷺ وأصحابه حولاً حتى انتفخت أقدامهم﴾[8] .

كما رغَّب النبىُّ ﷺ المؤمنين فى المداومة على تلاوة القرآن الكريم ، وذلك من خلال قوله : **(خيركم من تعلم القرآن وعلَّمه)**[9] وقوله : **(أهل القرآن أهل الله وخاصَّتهُ)**[10] وقوله : **(إنَّ القلوب تصدأ كما يصدأ الحديد** ، فقيل يا رسول الله وما جلاؤها ؟ **قال تلاوة القرآن وذكر الموت)**[11] وقوله : **(من قرأ حرفاً من كتاب الله تعالى فله حسنة والحسنة بعشر أمثالها ، لا أقول ألم حرف ، ولكن ألف حرف ولام حرف ، وميم حرف)**[12] .

فذاك ترغيب فى شىء يعين على جلاء القلوب ونقاء السريرة ، ويحقق السعادة فى الدارين بإذن الله تبارك وتعالى ..

(ب) ثبوت الأجر لمجرد تلاوة القرآن الكريم :

لقد ثبت أن مجرد ترديد ألفاظ القرآن ولو من غير فهم فيه أجرٌ وثواب من الله عزّ وجلّ ، ويتضاعف هذا الأجر ويزداد كلَّما تيسر الفهم وازداد وكلما قرأ القارىء قراءة تدبُّرٍ وتفهُّم ، قال تعالى :

---

(8) ابن كثير- مختصر تفسير ابن كثير جـ ٣ ص ٥٦٣ - ٥٦٤ .
(9) البخارى .
(10) النسائى وابن ماجة والحاكم .
(11) البيهقى فى الشعب .
(12) الترمذى .

﴿إن الذين يتلون كتاب الله وأقاموا الصَّلاة وانفقوا ممَّا رزقناهم سرًّا وعلانية يرجون تجارةً لن تبور.ليوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله إنَّه غفور شكورٌ﴾[١٣] .

وتلك إشادة بالذين يداومون على تلاوة القرآن الكريم ويعملون بمقتضاه ، ووعد من الله لهم بأنه سيوفيهم جزاء أعمالهم وثواب ما فعلوا من صالح الأعمال ، ويزيدهم ـ فوق أجورهم ـ من فضله وإنعامه واحسانه ، قال فى التسهيل : توفية الأجور هو ما يستحقه المطيع من الثواب ، والزيادة : التضعيف فوق ذلك أو النظر إلى وجه الله ، **﴿إنَّه غفورٌ شكورٌ﴾** أى مبالغ فى الغفران لأهل القرآن ، شاكر لطاعتهم ، قال ابن كثير : كان مطرف إذا قرأ هذه الآية قال : هذه آية القرَّاء[١٤] .

فالآية لم تربط التلاوة بأية درجة من درجات الفهم ، ولكنها ربطت التلاوة بالصلاة والانفاق السرى والعلنى ، وتلك دعوة إلى تطبيق ما فى القرآن الكريم .. ومن ثم نقول : من لم يتسن له الفهم الدقيق أو المتكامل ، ولم تتيسر لديه القراءة بطلاقة فليسأل أهل الذكر ، وليعن بالجانب التطبيقى قبل التجويد للقراءة أو الفهم المتكامل ، ثم ليجتهد بعد ذلك ما وسعه الاجتهاد لتحسين تلاوته وتوسيع دائرة معرفته دون قلق أو جزع ، لأن أجره ثابتٌ عند الله ، ودون حسد للماهرين فى التلاوة والقادرين على الفهم ؛ إذْ لا يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون ، ولهذا قال الرسول

(١٣) فاطر : ٢٩ ـ ٣٠ .
(١٤) محمد على الصابونى ـ صفوة التفاسير جـ ٢ ص ٥٧٥ .

ﷺ : «الماهر فى القرآن مع السفرة البررة ، والذى يقرأ القرآن وهو عليه شاق يتتعتع فيه له أجران ، أجر التلاوة وأجر التعتعة»[15] ..

والمهارة هنا تعنى تجويد القراءة ، والذى يدل على ذلك هو المقابلة اللفظية أو المعنوية التى جاءت فى حديث الرسول ﷺ ، بين الماهر والذى يتتعتع فى قراءة القرآن . والتجويد كما عرفنا هو الاتقان والنطق الصحيح بالقرآن الكريم ، فهو إذن صناعة لفظية لها قواعدها التى تعين على إعطاء الحروف حقوقها وترتيبها ورد الحرف إلى مخرجه الأصلى ، ومن ثم لا تكفى الدراسة فقط لقواعد التجويد ، ولكن لابُدَّ من التدريب العملى على السماع ثم النطق .

وقد ذهب بعض العلماء إلى أن القراءة بلا تجويد لحناً فى القرآن ، واللحن خللٌ يطرأ على الألفاظ ، وحيفٌ يلحق مخارج الحروف ، لهذا نسب إلى أبى بكر الصديق قوله : لئن أقرأ فأسقط خيرٌ لى من أن أقرأ فألحن» وإلى ابن الخطاب قوله : «للحنكم فى القول أشدٌّ علىَّ من خطئكم فى الرمى» .

وإذا كان اللحن معيباً مستهجناً فالمبالغة فى التجويد إلى حد التكلف والتنطع أيضاً معيبة مستهجنة ؛ ذلك لأن التكلف والتنطع كثيراً ما يقودان إلى زيادةٍ أو نقصٍ فى الحروف أو فى نطقها ، وذاك حيفٌ وظلمٌ للحروف والكلمات كما يحدث مع اللحن ، والمتكلف المتنطع لا يعدٌّ

---

(١٥) مسلم كتاب صلاة المسافر- باب فضل الماهر بالقرآن - رقم ٧٩٨ .

ماهراً المهارة التى عناها الرسول ﷺ بقوله : **«الماهر فى القرآن مع السفرة البررة»** ؛ لأنه بتكلفة وتنطعه يكون قد ابتعد عن دائرة الاتقان والتجويد ، ومن ثم يبتعد عن دائرة المهارة .

(ح) أهمية الاحتفاء بالقــرآن وكيفيته :

لابد لنا ـ نحن المسلمين ـ من أن نحتفى ونحتفل بالقرآن الكريم ؛ ذلك لأن الاحتفاء به يثير دوماً حركة الفكر ويُجدِّدُ نشاط العقل البشرى المحدود المكدود ، والذى كثيراً ما تطرأ عليه حالات الجمود والخمود ، فيدعو ذلك الاحتفاء إلى التجديد فى الفكر الدينى على ضوء الأطر الكبيرة التى وضعها القرآن الكريم ، لمقابلة ما يجد ويتجدد فى الأمور الدنيوية للبشر ، بل إن الاحتفاء بالقرآن الكريم يعطى كلَّ مؤمن شحنة روحية تعين على صفاء نفوس المؤمنين ونفوس الذين أوتوا العلم منهم على وجه أخص ، قال تعالى :

﴿تقشعرُّ منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله﴾[16] وقال : **﴿إنَّ الذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سُجَّداً . ويقولون سبحان ربنا إن كان وعد ربِّنا لمفعولاً . ويخرُّون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعاً . ﴾**[17] والمقصود هنا العلماء الذين قرأوا الكتب السالفة من صالحى أهل الكتاب إذا

---

(١٦) الزمر : ٢٣ .

(١٧) الاسراء : ١٠٧ ـ ١٠٩ .

سمعوا القرآن تأثروا فخروا ساجدين لله رب العالمين حالة كونهم باكين عند سماع القرآن ، فالضمير إذن فى قوله ﴿**يتلى عليهم**﴾ إنّما يعود إلى العلماء المصرَّح بذكرهم قبل الضمير ، حيث بدأت الآية بقوله تعالى ﴿**قل آمنوا به أو لا تؤمنوا إنَّ الذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرُّون للأذقان سجَّداً**﴾ .

إذن آية الاسراء المذكورة هنا تؤكد تأثير القرآن الكريم تأثيراً بالغاً يدعو إلى البكاء ويدعو إلى السجود طوعاً واختياراً لله عزّ وجلّ اجلالاً وتعظيماً ، وذاك كله لمجرد سماع القرآن ، أما آية الزمر المذكورة هنا أيضاً فإنها تشير إلى تأثير القرآن المتمثل فى قشعريرة الأبدان واطمئنان القلوب عند تلاوة القرآن الكريم ، هيبةً من الرحمن واجلالاً لكلامه ..

وهذا وذاك يؤكدان ما ذهبنا إليه من ضرورة الاحتفاء والاحتفال بالقرآن الكريم ليتجدد العقل والفكر ، وتصفو النفس والروح ، ولكن كيف يكون هذا الاحتفال أو الاحتفاء ؟ اتكفى المهرجانات الشكلية التى تقام هنا وهناك بمرور عام أو مائة عام ؟ أم لا علاقة لمثل هذه المهرجانات الشكلية بتنشيط العقل وتجديد الفكر وتنقية النفس والروح ؟

نعتقد أن الاحتفاء المطلوب بالقرآن الكريم يتمثل فى المقام الأول فى العناية بالقرآن الكريم تعلماً وتمسكاً ، ليكون أثره عظيماً وعطاؤه وفيراً فيعم هديه ونفعه ، ومن ثم نهيب بكل مسلم أن يسمح لنور القرآن بالدخول إلى داره ، ليعمر قلبه وقلوب أهله وعشيرته بالايمان ، وألّا يتصور بعض

الآباء أنَّ هذا الدخول قد يتحقق لهم عبر المذياع أو التلفاز الذى يفتتح برامجه بآى من الذكر الحكيم ، أو عن طريق اقتناء المصحف ووضعه فى المنزل زينةً أو تبركاً ! ! ! ولكن علينا جميعاً أن نحقق معنى قول الله عزّ وجلّ :

﴿فذكِّر بالقرآن من يخاف وعيد﴾ وقوله : **﴿وإذا قرىء القرآن فاستمعوا له وانصتوا لعلكم ترحمون﴾**[18] وقوله : **﴿إنَّما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربِّهم يتوكلون﴾**[19] .

وبهذا يتحقق احتفاؤنا العظيم بالقرآن ، وتتوثق صلتنا به ، فلا نكون من الذين عناهم القرآن الكريم ـ على لسان الرسول ﷺ ـ بقوله : **﴿إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجوراً﴾** ، ولنكن على ذكر من أنواع هجر القرآن التى ذكرها العلامة ابن القيم رحمه الله حيث قال : أحدهم هجر سماعه والإيمان به ، والثانى : هجر العمل به وإنْ قرأه وآمن به ، والثالث : هجر تحكيمه والتحاكم إليه ، والرابع : هجر تدبُّره وتفهم معانيه ، والخامس : هجر الاستشفاء والتداوى به فى أمراض القلوب ، وكل هذا داخل فى قوله تعالى : **﴿إنَّ قومى اتَّخذوا هذا القُرآن مهجوراً﴾** وإن كان بعض الهجر أهون من بعض[20] .

فلتتوثق صلتنا بالقرآن تعلُّماً وتمسكاً ، ولنذكر قول الرسول ﷺ : «**اقرأوا القرآن فإنه يجىء يوم القيامة شفيعاً**

---

(١٨) الأعراف : ٢٠٤ .

(١٩) الأنفال : ٢ .

(٢٠) محمد جمال الدين القاسمى ـ محاسن التأويل ١٢/٥٧٥ .

لصاحبه»[٢١] وعندما تتوثق صلتنا بالقرآن الكريم قراءةً وتعلماً وعملاً يحق لنا أن نقيم المهرجانات التى تحفز الهمم وتشحذ الأذهان ..

(د) الحث على تلاوة التدبر والتفكر :

أتكفى بجرد التلاوة أو القراءة للحصول على الشفاعة المذكورة فى حديث رسول الله ﷺ : **«اقرأوا القرآن فإنَّه يجىء شفيعاً لصاحبه يوم القيامة» أم لا ؟ نأمل ونرجو أن يكون ذلك كذلك طالما ثبت الأجر لقارىء القرآن وهو عليه شاق يتتعتع فيه ، ولكن الأجر درجات ، والقراءة أنواع ، الذى يتعتع قد يكون حاضر القلب مرهف الحس والمشاعر ، لكنه يُحسُّ بالثقل فى اللسان لعدم تعوده على لغة القرآن ورسمه ، أو عدم معرفته وإلمامه بقواعد لغة العرب ، وقد يكون القارىء طلق اللسان لكنه غافل الجنان ، لا يتدبر ما فى القرآن ، ولا يهتم بالعمل بمقتضاه ، هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون ! .**

ومن ثم نحثُّ وندعو إلى قراءة التدبر والتفكر فى القرآن الكريم مع تعظيم له واستحضار القلب ، بغض النظر عن الطلاقة فى اللسان أو العجز طالما كان عجزاً مقدراً ..

ونعتقد أن قراءة التدبر هى الترتيل المطلوب فى قوله تعالى :

﴿ورتِّل القرآن ترتيلاً﴾ أى إقرأه على تمهل فإنه يكون

---

(٢١) مسلم ـ كتاب صلاة المسافر باب فضل قراءة القرآن ـ رقم ٨٠٤ .

عوناً عَلى فهم القرآن وتدبره ، وكذلك كان يقرأ رسول الله صلوات الله وسلامه عليه ، قالت عائشة : كان يقرأ السورة فيرتلها ، حتى تكون أطول من أطول منها ، وفى صحيح البخارى عن أنس أنه سئل عن قراءة رسول الله ﷺ فقال : كانت مداً ، ثم قرأ ﴿**بسم الله الرحمن الرحيم**﴾ يمد بسم الله ويمد الرحمن ويمد الرحيم ، عن أم سلمة رضى الله عنها أنها سئلت عن قراءة رسول الله ﷺ فقالت : كان يقطع قراءته آية آية . .. وفى الحديث : يقال لقارىء القرآن : اقرأ وأرق ورتل كما كنت ترتل فى الدنيا فإن منزلتك عند آخر آية تقرؤها»[٢٢]

فالترتيل يعنى التمهل والتأمل والتفكر ، وذاك يعين على الفهم دون ريب فيستنير القلب بنور معرفة الله عكس الاسراع فى القراءة ، والترتيل والتدبر لا يتعارضان مع ترقيق الصوت ، ولهذا كان الصحابة رضوان الله عليهم يحاولون الجمع بين ترقيق الصوت وتجويد التلاوة ، وقد روى أنَّ عبدالله بن مسعود كان قارئاً ندىًّ الصوت جيِّد التلاوة ، وللتلاوة الجيدة بالصوت الندى أثرها لدى القارىء والمستمع فى فهم القرآن وادراك أسراره فى خشوع وضراعة ، وقد روى أنَّ رسول الله ﷺ قال : «**من أحبَّ أن يقرأ القرآن غضّاً كما أُنزل فليقرأه على قراءة ابن أم**» يعنى ابن مسعود ..

فالترقيق وجمال الصوت أو نداوته ليس مقصوداً لذاته ،

---

(٢٢) ابن كثير ــ مختصر تفسير ابن كثير جـ ٣ ص ٥٦٢ ــ ٥٦٣ .

إنَّما المقصود أن يكون ذلك عوناً للقارىء فى فهم القرآن وادراك أسراره ، وللمستمع كذلك ، والا لخرجت القراءة ـ مهما كانت درجة جودتها وتنغيمها ـ عن دائرة الترتيل المطلوب للقرآن الكريم ، والذى أمر الرسول ﷺ به **﴿ورتل القرآن ترتيلاً﴾** وقد بين له الغرض من تلاوته وتلاوة المسلمين أجمعين فى قوله تعالى : **﴿كتابٌ أنزلناه مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولو الألباب﴾** .

وقد روى عن الحسن البصرى أنه قال : والله ما تدبُّره بحفظ حروفه واضاعة حدوده ، حتى أن أحدهم ليقول : والله لقد قرأت القرآن فما اسقطت منه حرفاً ، وقد أسقطه والله كلَّه ، ما يرى للقرآن عليه أثر فى خلق ولا عمل»[٢٣] .

ولست أدرى ماذا كان سيقول البصرى حيال ما شغل به بعض المسلمين من زخارف وبهارج (مهرجانية) للقرآن الكريم يتباهى فيها بالحفظ والاستيعاب دون وعيٍ أو فهم ، ودون تطبيق أو عمل ! ! !

وكما قلنا من قبل : الغلو أو المبالغة فى التجويد مذمومة ، لأن الخروج بأى شىء عن حده ينقلب به إلى ضده ، كذلك الغلو والمبالغة فى التنغيم والتطريب ، خاصة ما ابتدع من تلحين فى القراءة ، وقد ذكرها الرافعى بقوله : «ومما ابتدع فى القرأة والأداء هذا التلحين الذى بقى إلى اليوم يتناقله المفتونة قلوبهم ، وقلوب من يعجبهم شأنهم ، ويقرأون به على ما يشبه الايقاع ، وهو الغناء التقى ، ومن

---

(٢٣) الزمخشرى ـ الكشاف جـ ٤ ـ ص ٧٠ .

أنواعه عندهم فى أقسام النغم «الترعيد» وهو أن يرعد القارىء صوته كأنه يرعد من البرد أو الألم . و «الترقيص» وهو أن يروم السكوت على الساكن ، ثم ينقر مع الحركة كأنه فى عدو أو هرولة و «التطريب» وهو أن يترنم بالقرآن ، ويتنغم به ، فيمد فى غير موضع المد ، ويزيد فى المد أن أصاب موضعه ، و «التحزين» وهو أن يأتى بالقراءة على وجه حزين يكاد يبكى مع خشوع وخضوع . و«الترديد» وهو رد الجماعة على القارىء فى ختام قراءته بلحن واحد على وجه من تلك الوجوه .

وإنما كانت القراءة تحقيقاً ـ وهو اعطاء كل حرف حقه على مقتضى ما قرره العلماء مع الترتيل وتؤدة ــ أو حدراً ــ وهو ادراج القراءة وسرعتها مع مراعاة شروط الأداء الصحيحة ، أو تدويراً ـ وهو التوسط بين التحقيق والحدر ..»[24] .

فلتكن قراءتنا قراءة تدبر وتفكر ، وألا نكون من الغافلين المخالفين للقرآن الكريم رغم تلاوتهم له والذين يلعنون أنفسهم بأنفسهم عندما يتلون قول الله عزّ وجلّ : **﴿فلعنة الله على الكافرين﴾** وقوله : **ألَا لعنة الله على الظالمين﴾** فالذى يعرض نفسه لمهاوى الردى والهلاك والظلال يكون قد ظلمها وتجنّى عليها **﴿وما ظلمناهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾** .

كما نشير إلى أن هذا التدبر الذى نحض عليه لا ينفى مزية

---

(٢٤) مصطفى صادق الرافعى ـ اعجاز القرآن ٧٧ .

أجر التلاوة ولو من غير فهم ، فتلك خاصية تميز وتفرَّد بها القرآن الكريم دون سواه من سائر العبادات ، بما فى ذلك الصلاة التى هى عماد الدين ؛ إذ ليس للمصلى من ثوابها إلّا بمقدار ما عقل منها ، ومن ثمَّ كان لا بد من جبر ما نسى فى الصلاة ـ زيادةً أم نقصاناً ـ بسجدتى سهو ، بخلاف تلاوة القرآن فليس فيها سجدتا سهو ، ولكن فيها سجدةً للتلاوة ، وهى ليست لجبر خطأ أو نسيان ، ولكنها للتبجيل والتعظيم لله عزّ وجلّ والاقرار بخالقيته حيث يقول الساجد فى سجوده للتلاوة : سجد وجهى للذى خلقه وصوره ، وشقَّ سمعه وبصره ، بحوله وقوته ، فتبارك الله أحسن الخالقين ..

(هـ) لماذا انفرد القرآن الكريم بخاصية الأجر؟

تُرى لماذا انفرد القرآن الكريم بتلك الخاصية ، خاصية الأجر لمجرد التلاوة ؟

هناك حكمٌ ساميةٌ وراء انفراد القرآن الكريم بخاصية الأجر لمجرد التلاوة ، نجد أبرزها ماثلاً فى الجوانب التالية : (٢٥)

١ ـ توفير عامل مهم من عوامل المحافظة على القرآن وبقائه مصوناً من التغيير والتبديل اللذين أصابا كتب الله من قبل ، ذلك أن هذا الأجر العظيم الذى منحه الله من يتلو كتابه العزيز ، ولو من غير تفهم لمعانيه من شأنه أن يرغب الناس فى قراءة القرآن الكريم ويدفعهم إلى

---

(٢٥) محمد عبدالعظيم الزرقانى ـ مناهل العرفان فى علوم القرآن جـ ٢ ص ١٣٠ ـ ١٣١ .

الاكثار منها ، ويحركهم إلى استظهاره وحفظه ، إذ أن انتشار القراءة والقراء والحفظ والحفاظ يجعل القرآن كثير الدوران على الألسنة ، واضح المعالم فى جميع الأوساط والطبقات ، عند ذاك لا يجرؤ أحدٌ على تغيير شيء فيه ، وإلّا لقى أشدَّ العنت من عارفيه ، كما حدث لبعض من حاولوا هذا الاجرام من أعداء الاسلام .

٢ ـ إيجاد وحدةٍ لغويةٍ للمسلمين تُعزِّز وحدتهم الدينية وتيسر وسائل التفاهم والتعاون فيما بينهم ، فتقوى بذلك صفوفهم وتعظم شوكتهم وتعلو كلمتهم ، وتلك حكمة إلهيَّة عالية فطن لها الإسلام على يدِ هذا النبى الأمى ، وقد نجحت هذه الحكمة نجاحاً باهراً منذ القدم ، حيث انضوت أمم كثيرة مختلفة اللغات تحت اللسان العربى ، ونبغ منهم عدد كبير سبقوا كثيراً من العرب فى علوم القرآن وعلوم لغة القرآن .

٣ ـ استدراج القارىء إلى التدبر والاهتداء بهدى القرآن الكريم عن طريق هذا الترغيب المشوق ، وبوساطة هذا الأسلوب الحكيم فإن من يقرأ القرآن فى يومه وهو غافل عن معانيه يقرؤه فى غده وهو ذاكر لها أوشك أن يعمل بعد غد بهديها ، وهكذا ينتقل القارىء من درجة إلى درجة أرقى منها حتى يصل إلى الغاية بعد تلك البداية ...

وبالطبع من يقرأ القرآن ولا يعمل بمقتضاه يكون شأنه شأن اليهود الذين وصفهم الله بقوله : ﴿**مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل**

أسفارا﴾ (١) أو يكون كمن قال فيهم رسول الله ﷺ : **«كم من قارىء للقرآن والقرآن يلعنه»** .

وإذا أمعنا النظر فيما رواه أبوهريرة رضى الله عنه من أن النبى ﷺ قال : **«ما اجتمع قوم فى بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلّا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وحفتهم الملائكة وذكرهم الله فيمن عنده ومن أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه»** لاتّضح لنا أنّ الحديث يرغب فى تلاوة القرآن الكريم ويحثّ على العمل به ، وفى الوقت نفسه يحذر من الركون والاعتماد على النسب والحسب تماماً مثل التحذير من الركون والاعتماد على حفظ القرآن واستظهاره دون تدبر ودون تمسك أو عمل به ؛ إذ لابد لحاملى القرآن من تدبره والعمل بمقتضاه فى جميع جوانب حياتهم ما وسعهم ذلك ــ وإلّا كانوا كمن قال فيهم ابن عباس : «ولو أن حملة القرآن أخذوه بحقه وما ينبغى لأحبهم الله ولكن طلبوا به الدنيا فأبغضهم الله وهانوا على الناس» .

أى أنّ القرآن عندئذ لا يحقق الهداية ولا يجلو ما فى القلب من صدأ وران ؛ لأنّ حامله لم يسلك في حياته اليومية وفق توجيهات القرآن الكريم ، ولكنه يعمل وفق هواه ناسياً أو غير آبه بقوله تعالى :

﴿وأمّا من خاف مقام ربه ونهى النّفس عن الهوى فإن الجنّة هى المأوى﴾ فلم يجاهد هوى نفسه الأمّارة

---

(١) سورة الجمعة الآية ٥ .

بالسوء ، لذلك لا تنفعه تلاوةٌ ولا حفظ طالما لم يتدبر القرآن الكريم ولم يعمل بمقتضاه ، ذلك لأن التلاوة عبادة ، وليس الغرض من العبادات كلها تحقيق أى عائد منها لله سبحانه وتعالى ، فهو الغنى الحميد ، ولكن الغرض تحقيق أى عائد للعابد ذاته خاصة الإنسان الكنود الجحود ، بغية السموِّ والارتفاع به عن الدرك الأسفلِ عبر قلبه ومعنوياته ، فالصلاة تطهير للقلوب وتزكيةٌ للنفوس ، والصوم تقوية للإرادة وتنمية لوجدان فعل الخير الذى ينأى بصاحبه عن الشحّ والتقتير والبخل وغيرها من الأدواء الاجتماعية التى تعوق تقدم المجتمع وتهدم بنيانه فتهد كيانه .

الفصـــل الثانى

القــرآن الكريــم وهدايتــه للبشــرية

١ ـ القرآن نفحة ربانية لبنى البشر .
٢ ـ كيف يمكن الانتفاع بالقرآن الكريم ؟
٣ ـ وسيلة القرآن فى الدعوة إلى مقاصده .
٤ ـ القرآن والإيمان بالأديان المنزلة .
٥ ـ الإنسان فى القرآن عبدالله وخليفته فى الأرض .

١ ـ القرآن نفحة ربانية لبنى البشر :

من تعريفنا بالقرآن الكريم تأكد لنا أنّه النور الإلهى الذى يخرج الناس ـ كلَّ الناس ـ من الظلمات إلى النور ، لذلك استطاع منذ نزوله وإلى اليوم أن يأسر القلوب والعقول ، فما السر فى ذلك يا ترى ؟

أعتقد أن ذلك راجع إلى أن القرآن لم يكن من صنع البشر ، إذ لو كان نتاج فكر بشرى محدود مكدود لكان لا بدّ له من أن يندثر ، أو أن يظهر بطلانُ ما يشتمل عليه من أفكارٍ وتوجيهات يتضح تخلفها بمرور الزمن ، ولكنَّه ليس من صنع بشر ، بل من لدن حكيمٍ خبير بعباده أينما كانوا ، وفى أى زمانٍ وجدوا ، ومن ثمَّ بقى كاملاً شاملاً صالحاً لكل زمان ومكان .

جاء القرآن الكريم شاملاً جميع جوانب الحياة الدنيا التى وصفت فى كثير من آياته بأنها لعبٌ ولهوٌ وتكاثرٌ فى الأموال

والأولاد ، كما وصفت الأموال بأنها زينة الحياة ، ولكن أَيَّةُ حياة ؟ هى الحياة الدنيا دون ريب ، كما تحدث القرآن حديثاً شاملاً جميع جوانب الآخرة التى وصفت بأنَّها خيرٌ وأبقى ، نعم إنَّها الباقية الدائمة ـ ومن ثم رغَّبَ القرآن الناس فى العمل بهمة لمثل تلك الحياة .

هذا الاكتمال وذاك الشمول لجوانب الحياة الدنيا والآخرة هى سرٌّ استمرار أسر القرآن الكريم للقلوب والعقول ـ فى نظرنا ـ وهو سبب صلاحيته لكل زمان ومكان ، ومن ثم كان فضله عظيماً ونفعه عميماً ، ولولا عناية الله بعباده الذين هداهم إلى القرآن وبالقرآن وجعل فى قلوبهم قوةً تساعدهم على حمل القرآن ليتدبروه ويعتبروا به فيكونوا على ذكر دوماً مما فيه من دعوة إلى عبادة الله وحده وطاعته وأداء حقوقه وفرائضه ـ لولا تلك العناية ـ لضعفت القلوب ولدكت بثقل القرآن الذى تتصدع له الجبال ، قال تعالى : **﴿لو أنزلنا هذا القرآن على جبلٍ لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله﴾**[1] فأين قوة القلوب من قوة الجبال ؟ لا مقارنة ، ولكن الله رزق عباده من القوة على حمل القرآن ما شاء أن يرزقهم فضلاً منه ورحمة .

وبهذا نستطيع أن نؤكد القول بأن القرآن الكريم نعمةٌ إلهية ونفحةٌ ربانية لبنى البشر ، وقد جاءت الأحاديث النبوية مؤكدةً هذا المعنى من خلال بيان فضل القرآن وأهميته وحث المؤمنين على العناية به ، روى البخارى عن عثمان بن عفان عن النبى ﷺ قال : «**خيركم من تعلَّم القرآن وعلمه**» وروى مسلم عن عائشة رضى الله

---

(1) الحشر : ٢١ .

عنها أنها قالت قال رسول الله ﷺ : «**الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة والذى يقرأ القرآن ويتتعتع فيه وهو عليه شاق له أجران**» وغير ذلك من الأحاديث التى تؤكد فضل القرآن الكريم وتحض على تلاوته .

استحق القرآن الكريم تلك الأفضلية : فكان نعمة للبشرية ، لأنه موجَّهٌ للناس كلهم دون تقيد بعنصر عرق أو جنسي أو اقليمى ، قال تعالى : ﴿**يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون. الذى جعل لكم الأرض فراشا والسماء بناء وأنزل من السماء ماءً فأخرَجَ به من الثمرات رزقاً لكم فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون**﴾ (٢) .

وقوله ﴿**ولا تجعلوا لله أنداداً**﴾ هو أساس فكرة التوحيد الذى هو جماع دعوة القرآن الكريم ، بل إنَّ فكرة التوحيد فكرةٌ مفطورة فى النفس الإنسانية ، حيث يولد كل إنسان على الفطرة النقية السليمة فأمه وأبوه يهودانه أو يمجسانه ، وتفهم هذه الفطرة الإيمانية من خلال قول الله عزّ وجلّ : ﴿**وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا**﴾ (٣) .

وقد كان للمفسرين رأيان فى تفسير هذه الآية ، لكل منهما مغزاه ودلالته ، والرأيان هما :

الأول :

أن الله لما خلق آدم أخرج ذريته من صلبه وهم مثل الذر ،

---

(٢) البقرة : ٢١ ـ ٢٢ .
(٣) الأعراف : ١٧٢ .

وأخذ عليهم العهد بأنَّه ربُّهم فأقروا وشهدوا بذلك ، وقد روى هذا المعنى عن النبى ﷺ من طرق كثيرة ، وقال به جماعة من الصحابة .

الثانـي :

إن هذا من باب التمثيل والتخييل ، والمعنى أنه سبحانه نصب لهم الأدلة على ربوبيته ووحدانيته ، وشهدت بها عقولهم وبصائرهم التى ركَّبها فيهم وجعلها مميزة بين الضلالة والهدى ، فكأنه أشهدهم على أنفسهم ، وقال لهم ألست بربكم قالوا بلى ، وقد اختار هذا الرأى كل من الزمخشرى وأبوحيان وأبوالسعود[٤] وذكر ابن كثير أن مجموعة من السلف والخلف قالوا أن المراد بهذا الاشهاد إنما هو فطرهم على التوحيد كما تقدم فى حديث أبى هريرة وعياض بن حمار المجاشعى ، ومن رواية الحسن البصرى عن الأسود بن سريع ، وقد فسر الحسن الآية بذلك ، قالوا ولهذا قال : **﴿وإذ أخذ ربك من بنى آدم﴾** ولم يقل من آدم وقال : **﴿من ظهورهم﴾** ولم يقل من ظهره ، **﴿ذرياتهم﴾** أى جعل نسلهم جيلاً بعد جيل وقرناً بعد قرن ، كقوله تعالى : **﴿وهو الذى جعلكم خلائف الأرض﴾** وقال : **﴿ويجعلكم خلفاء الأرض﴾** وقال **﴿كما أنشأكم من ذرية قوم آخرين﴾** ثم قال : **﴿وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى﴾** أى أوجدهم شاهدين بذلك قائلين له حالا وقالا ، والشهادة تارة تكون بالقول كقوله : **﴿قالوا شهدنا على أنفسنا﴾** الآية ، وتارة تكون حالا كقوله تعالى **﴿ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد**

---

(٤) محمد على الصابونى ـ صفوة التفاسير ـ جـ ١ ص ٤٨١ (حاشية) .

الله شاهدين على أنفسهم بالكفر﴾ أى حالهم شاهد عليهم بذلك ، لأنهم قائلون ذلك ، وكذا قوله تعالى : **﴿وإنَّه على ذلك لشهيد﴾** [٥]

وهذا ما ذهبنا إليه عندما قلنا أن فكرة التوحيد فكرة مفطورة فى الإنسان ، وتلك حقيقة لا مراء فيها ، بدليل أن العرب المشركين رغم شركهم وعنادهم واصرارهم على الكفر فإنَّهم كانوا يعترفون بوجود إلهٍ أعظم ، لكنَّهم لا يدعون هذا الاله الأعظم إلّا عند ما يحيط بهم خطرٌ كبير ، عند ذاك يدركون أنَّه لا ملاذ لهم إلّا به ، ولا حول ولا قوة إلّا بالله ، وقد حكى لنا القرآن ذلك فى قوله تعالى : **﴿حتَّى إذا كنتم فى الفلك وجرين بهم بريحٍ طيبة وفرحوا بها جاءتها ريحٌ عاصفٌ وجاءهم الموج من كل مكانٍ وظنوا أنَّهم أحيط بهم دعوا الله مخلصين له الدين لئن انجيتنا من هذه لنكوننَّ من الشاكرين﴾** [٦] .

إذن الفطرة هى التوحيد ، والتوحيد هو أساس دعوة القرآن للبشرية جمعاء ، وقد أقام لهذه الدعوة كل الأدلة التى تفحم كل جبار عنيد ، وترد كل شيطان مريد ، كما أقام الأُطر الكبيرة والقواعد العلمية التى توجه نشاط الإنسان فى كل لحظة من لحظات حياته الوجهة الحقة ، سواء أكان ذلك فى علاقاته مع أهله وعشيرته ، أو فى علاقته مع أخيه فى الإنسانية ، أو فى علاقاته مع خالقه وموجده ، والذى بيده الأمر كله .

ومن ثم نقول : القرآنُ هداية لبنى البشر ، إذا تمسكوا به وترسموا أطره وقواعده الكلية التى وضعت لكل فرعٍ من فروع

---

(٥) ابن كثير ـ مختصر تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٦٤ ـ ٦٥ .
(٦) يونس ٢٢ .

النشاط الإنسانى خطّاً واضحاً ، أو خطوطاً عريضةً تُركت تفاصيلها لعقل الإنسان وفكره المتجدد المتغير ؛ لتأتى التفاصيل والفروع ـ متجددة فى كل زمان ومكان فيما يتعلق بجزئيات أمور الدنيا .

ونشير هنا إلى أنَّ المشركين الذين عارضوا رسول الله ﷺ وناصبوه العداء لم يكن اعتراضهم منصباً على الأطر والقواعد التى نظمت فروع النشاط الإنسانى قدر اعتراضهم على فكرة التوحيد ، حيث زعموا أنهم لم يسمعوا بها ولا فى الديانات السماوية السابقة كالمسيحية التى عرفتها جزيرة العرب ، وقد سجل القرآن الكريم ذلك الاعتراض على لسان المشركين : ﴿**أجعل الآلهة إلهاً واحداً إنَّ هذا لشىء عجابٌ**﴾[7] ﴿**ما سمعنا بهذا فى الملّة الآخرة إنْ هذا إلَّا اختلاقٌ**﴾[8] . ولا ريب فى أن زعمهم هذا ما هو إلّا فرية ليس فيها مرية ؛ إذ أن الأديان السماوية كلها كانت تدعو إلى التوحيد الخالص وترفض الوثنية والشرك ، قال تعالى : ﴿**أم اتَّخذوا من دونه آلهةً قل هاتوا برهانكم هذا ذكر من معي وذكر من قبلى بل أكثرهم لا يعلمون الحقَّ فهم معرضون . وما أرسلنا من قبلك من رسولٍ إلَّا نوحي إليه أنَّه لا إله إلَّا أنا فاعبدون . وقالوا اتَّخذ الرحمن ولداً سبحانه بل عبادٌ مكرمون ..**﴾[9] .

نعم كل الكتب السماوية كانت تدعو إلى توحيد الألوهية ، إلَّا أنَّ معنى الألوهية فى القرآن الكريم «يمتاز بقوة جارفة وأخاذة تصرف المستمع للقرآن عن مشاغله المادية الكثيرة ، وتحلق به دفعة واحدة إلى عالم الروح السامى»[10] .

---

(٧) ص : ٥ .

(٨) ص : ٧ .

(٩) الأنبياء : ٢٤ ـ ٢٦ .

(١٠) د . محمد عبدالله دراز ـ مدخل إلى القرآن الكريم ص ٨٦ .

وصرف المستمع عن المشاغل المادية بغية السمو به إلى الدرجات العلى أمرٌ واضح من خلال كثير من آى الذكر الحكيم ، من تلك الآيات قوله تعالى : ﴿**ألم تر إلى الذين قيل لهم كفُّوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة فلما كتب عليهم القتال إذا فريقٌ منهم يخشون النَّاس كخشية الله أو أشدَّ خشية وقالوا . ربَّنا لم كتبت علينا القتال لولا أخرتنا إلى أجلٍ قريب قل متاع الدنيا قليلٌ والآخرة خيرٌ لمن اتَّقى ولا تظلمون فتيلاً**﴾ (١١) وقوله : ﴿**الله ولىّ الذين آمنوا يخرجهم من الظلماتِ إلى النُّور والذين كفروا أولياؤهم الطَّاغوت يخرجونهم من النُّور إلى الظلمات أولئك أصحاب النَّار هم فيها خالدون**﴾ (١٢) .

وقوله : ﴿**الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله ثُمَّ لا يتبعون ما أنفقوا منّاً ولا أذىً لهم أجرهم عند ربِّهم ولا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون ، قولٌ معروفٌ ومغفرةٌ خيرٌ من صدقةٍ يتبعها أذىً والله غنىٌّ حليم**﴾ (١٣) وقوله : ﴿**أيود أحدكم أن تكون له جنةٌ من نخيل وأعناب تجرى من تحتها الأنهار له فيها من كلِّ الثمرات وأصابه الكبر وله ذريةٌ ضعفاء فأصابها إعصارٌ فيه نارٌ فاحترقت كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون**﴾ (١٤) وقوله : ﴿**الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلاً والله واسعٌ عليم**﴾ (١٥) .

هذه الآيات وغيرها ، بل القرآن فى مجمله يرتفع بالإنسان حينما يستمسك بالقرآن ويتدبره حق التدبر ، يرتفع به إلى عالم الروح

---

(١١) النساء : ٧٧ .
(١٢) البقرة : ٢٥٧ .
(١٣) البقرة : ٢٦٢ ـ ٢٦٣ .
(١٤) البقرة : ٢٦٦ .
(١٥) البقرة : ٢٦٨ .

السامى فيستشعر ـ دوماً ـ بأن الدنيا لا تزن عند الله جناح بعوضة ، وأنها لا تقارن بالآخرة رغم ما فيها من زخارف وبهارج ، ومن ثم لا يعطيها كل وقته وجهده ، كما لا يهملها ؛ لأنَّها مطية الآخرة ، ولأنها دار الابتلاء والاختبار ، ولا بد من اجتياز الاختبار ، وأعتقد أن أكبر امتحان يواجهه المؤمن فى دنياه هو امتحان المال ، **﴿وإنه لحبِّ الخير لشديد﴾ ﴿ألهاكم التكاثر حتى زرتم المقابر﴾ ﴿إنَّما أموالكم وأولادكم فتنةٌ﴾** .

يُفْتَتَن الإنسان بالفقر والحرمان من المال ، يفتتن بالغنى وتكديس الأموال ، إلَّا من شرح الله قلبه بالإيمان ، وخرج بنور القرآن من الظلمات إلى النور ، فإنَّه سيستثمر غناه إستثماراً طيباً ، فينفق فى سبيل الله ، ولا يتبع ما أنفقه منَّاً ولا أذىً ، هو إذن يقرض الله قرضاً فيضاعفه له .

هذا غنىٌ شاكرٌ متحدثٌ بأنعم الله ، وثوابه عند الله مدخر ، وذاك فقيرٌ صابرٌ راضٍ بما قسمه الله له نتيجة جهده وعمله ، فثوابه عند الله مدخر أيضاً ، لقاء قناعته وصبره ، وسيعوَّض ما افتقده فى الدنيا من متاع ، على حين تكوى جباه الذين كنزوا ولم ينفقوا ويقال لهم : هذا ما كنزتم ، أما الفقير الجازع فإنه يظل فى حيرة فى دنياه عندما يمد عينيه إلى ما مُتِّع به الآخرون فى حسرة وألم ، وربما أمره الشيطان بالفحشاء والمنكر ، بل ربما تزعزعت عقيدته واهتز إيمانه بغواية الشيطان له ، فيتساءل قائلاً : لماذا يبقى المؤمن فقيرا ؟ لماذا ينشد الطعام فلا يجده سهلاً ميسوراً ؟ ولا يجد أطايبه وفيراً ؟ ولماذا يلتمس الغنى فيتأبَّى عليه ؟ ولماذا تجرى الأموال من تحت أقدام أولئك الكفار أنهاراً ؟ هل اقتضت سنَّة الله أن يتلازم الكفر والغنى ، والإيمان والفقر ؟ وهل من العدل أن يجوع المؤمن ويتخم

الكافر؟ وغيرها من الأسئلة الحائرة .

أما الجوع فلا ، لم يدع الإسلام المسلم إلى الاستسلام لعوامل المرض أو الجوع والفقر ، ولكن حضّه على العمل ، وأمره به أمراً ، **﴿قل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله﴾ «لئن يحتطب أحدكم فيأكل من عمل يده خيرٌ له من أن يسأل الناس أعطوه أو لم يعطوه»** وجعل فى أموال الأغنياء حقٌّ معلومٌ للسائل والمحروم .

وما الغنى والفقر إلَّا سنَّةٌ من سنن الله فى خلقه ، المؤمنين منهم والكافرين ، وهذه السنة تُؤكد أنَّ الناس أمةٌ واحدة ، لها ربٌّ واحد ، **﴿قل أعوذ بربِّ النَّاس ، ملك الناس ، إله النَّاس ، من شرِّ الوسواس الخنَّاس ، الذى يوسوس فى صدور النَّاس﴾** فما على المؤمن إلَّا أنْ يجد ويعمل ثم يبتعد بعقله وفكره عن وسوسة الخناس فى حال غناه أو فقره ، ليسعد نفسه وأهله : **﴿وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك ولا تبغ الفساد فى الأرض إنَّ الله لا يحبُّ المفسدين﴾** [١٦] .

٣ ـ كيف يمكن الانتفاع بالقرآن الكريم :

ابتعد كثير من المسلمين ـ فى هذا الزمان ـ عن القرآن الكريم وقال بعضهم : كيف يمكننا الانتفاع بالقرآن الكريم وقد بعد العهد بيننا وبينه ؟ وقال آخرون : كيف نقنع أنفسنا بالعودة إلى القرآن الكريم وقد بعد بيننا وبينه ؟ وقال آخرون : كيف نقنع أنفسنا بالعودة إلى القرآن الكريم وذاك أمر يقتضى منا رجعة إلى الوراء ؟ بينما العالم من حولنا يتقدم بخطوات كبيرة إلى الأمام .

هكذا يقولون ، كبرت كلمة تخرج من أفواههم ؛ ذلك لأن

(١٦) القصص : ٧٧ .

العودة إلى القرآن لا تُعَدُّ رجوعاً أو تقهقراً فى نظر أى منصف ، إنَّما هى نهضة وتقدم ودعوة إلى رأب صدع الأمة التى تفككت وتفرقت بعد أن كانت خير أمة أخرجت للناس ، وهذه الخيرية لم تكن موجودة قبل الإسلام بل حتى مفهوم «الأمة» لم يكن موجوداً قبل الإسلام بهذا المعنى ولكن القرآن الكريم هو الذى حقق كل ذلك يشهد بهذا ما سجّله المسلمون وغير المسلمين ، والفضل ما شهدت به الأعداء ، يقول الباحث فيليب دى طرازى : «ما كاد يظهر الإسلام حتى أحدث القرآن فى أنصاره وأتباعه انقلاباً عجيباً غريباً لم يكونوا يتوقعونه على الاطلاق ، فبعد ما كانوا منقسمين إلى قبائل وبطون لا يعرفون من الشئون الاجتماعية شيئاً ، دأبهم الغزو والنهب والقتل وأخذ الثأر أصبحوا بقوة القرآن أمةً متوحدةً فى لغتها ودينها وشريعتها وسياستها»[17] .

وما ذاك إلَّا لأن القرآن الكريم قد اشتمل على الأسس والأهداف السامية التى تكفل التقدم وتتيح فرص التوحيد والرقى والتطور فى شتى المجالات .

أما ما يتشدقُ به المرجفون من قدم ورجعية فنرى أنه لا ينفى عن القرآن الكريم الأسس والأهداف السامية التى ذكرناها ؛ لأن الدعوة إلى استلهام القديم لا يمكن أن تكون شاذة لمجرد قدم ما يدعى إليه ، ولا يمكن أن تكون دعوة إلى التأخر أو التقهقر كما زعموا ، وإلَّا لما كان لميراث الأمم والشعوب أيَّة قيمة أو فائدة تذكر ، وكيف يكون هذا والبشرية كلُّها سلسلة متصلة الحلقات وأجيال متواثقة الصلات يمد بعضها بعضاً ، ويرث بعضها بعضاً ، وتظل أولاها ممتزجة بأُخراها ، وأُخراها مقتبسة من أولاها ، إلى أن

---

(١٧) فيليب طرازى ـ مجلة المجمع العلمى العربى بدمشق ـ مج ١٩ (١٩٤٤) .

يرث الله الأرض ومن عليها .

إذا كان الرجوع إلى ميراث الأمة الفكرى والحضارى شيئاً مقبولاً رغم قدم العهد ، وكان لابد من تناقله واستلهامه ، فكيف يكون الحال بالنسبة للقرآن الكريم ، الذى هو من الله العلى القدير ، خالق الشعوب ومبدع حضارتها ؟ ألا يكون مقبولاً ؟ بلى . نعم إذا كان استلهام القديم من نتاج الفكر البشرى المحدود المكدود مفيداً لا بد أن يكون الرجوع إلى القرآن أكثر فائدةً وأكثر تحقيقاً للسعادة عبر التقدم والتطور الذى يدعو إليه القرآن وفق الخطط والأطر المرسومة ، ولكن لن يتحقق شىءٌ من ذلك إلَّا إذا فُهم القرآن حقَّ الفهم ، وتمَّ التمسك به والسير على هديه ، فهو كتابُ هداية باقيةٍ دائمة ، وهدايته تتحقق عبر مقاصده التى تدور حول ثلاث نواح بارزةٍ هى :

١ ـ ناحية العقيدة . ٢ ـ ناحية الأخلاق . ٣ ـ ناحية الأحكام .

وهداية البشرية جمعاء إنَّما تتحقق عبر هذه النواحى الثلاث ؛ ذلك لأن العقائد تطهِّر القلوب من بذور الشرك والوثنية ، وتربطها بمبدأ الروحية الصافية ، والأخلاق تهذِّب النفوس وتزكيها فترفع من شأن الفرد والجماعة ، أمَّا الأحكامُ فإنَّها تنظم علاقة الإنسان بربه وعلاقة الإنسان بأخيه الإنسان ، وقد جاءت الأحكام الإسلامية ماثلة فى الأطر الكبيرة لأحكام العبادات ، والمعاملات ، والحرب ، والسلم ، وما يتبعها من غنائم وأسرى ومعاهدات ، وما إلى ذلك مما يدخل فى إطار الأحكام الدولية ، إلَّا ما اقتضت الحكمة الالهية تفصيله وتوضيح دقائقه وجزئياته تولَّى القرآن تفصيله .

وليتحقق الانتفاع بالقرآن الكريم لا بدَّ من تفهم كل تلك الجوانب ، وبمقدار الفهم يكون النفع وتكون الفائدة ؛ إذ كلَّما

تضاءل الفهم وقصر قلَّ النفع وضُمر ، وكلَّما اتسعت دائرة الفهم انداحت دائرة النفع .

ونشير هنا إلى أن بعض الباحثين توصَّلوا إلى أنَّ هداية القرآن قد انداحت دائرتها منذ القدم فانتظمت الأنس والجن ، لخصائص ومميزات ـ انفردت بها تلك الهداية فقالوا : «... وهداية القرآن تمتاز بأنها عامة ، وتامة ، وواضحة ، أما عمومها فلأنها تنتظم الانس والجن فى كل عصْر ومصر ، وفى كل زمان ومكان ، قال سبحانه وتعالى : **﴿وأوحي إليَّ هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ﴾** وقال جلت حكمته : **﴿وهذا كتابٌ أنزلناه مباركٌ مصدق الذى بين يديه ولتنذر أم القرى ومن حولها﴾** وقال عزّ وجلّ : **﴿قُل يأيها الناسُ إنِّى رسولُ الله إليكم جميعاً﴾** وقال عمت رحمته : **﴿وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا انصتوا فلما قضى وَلَّوا إلى قومهم منذرين ، قالوا : يا قومنا إنَّا سمعنا كتاباً أنزل من بعد موسى مصدقاً لما بين يديه ، يهدى إلى الحق وإلى طريق مستقيم ، يا قومنا أجيبوا داعى الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويُجِرْكُمْ من عذابٍ أليم ، ومن لا يجيب داعى الله فليس بمعجزٍ فى الأرض وليس له من دونه أولياءُ أولئك فى ضلالٍ مبين﴾**[١٨] .

وأما تمام هذه الهداية فلأنها احتوت أرقى وأوفى ما عرفت البشرية وعرف التاريخ من هدايات الله للناس ، وانتظمت كل ما يحتاج إليه الخلق فى العقائد والأخلاق والعبادات والمعاملات على اختلاف أنواعها ، وجمعت بين مصالح البشرية فى العاجلة والآجلة .

وأما وضوح هذه الهداية فلعرضها عرضاً رائعاً مؤثراً توافرت فيه

(١٨) الأحقاف : ٢٩ ـ ٣٢ .

كل وسائل الإيضاح وعوامل الاقناع ، أسلوب فَذٌّ معجز ببلاغته وبيانه ، واستدلالٌ بسيطٌ عميق ، يستمد بساطته وعمقه من كتاب الكون الناطق ، وامثالٌ خلابةٌ تُخْرِجُ أدقَّ المعقولات فى صورة ـ أجلى الملموسات ، وحكمٌ بالغاتٌ ، تبهر الألباب بمحاسن الإسلام وجلال التشريع ....)[١٩] .

ولا بد من معرفة كل هذه الجوانب وغيرها لتتسع دائرة النفع بالقرآن الكريم ، فترتقى حياةُ الناس وتتطور ، بغية عمارة الكون ، تلك العمارة التى جعل الله الإنسان خليفة فى الأرض من أجلها .

٣ ـ وسيلة القرآن فى الدعوة إلى مقاصده :

الوسائل التى اعتمد عليها القرآن الكريم فى الدعوة إلى مقاصده كثيرة متنوعة منها ما يلى :

١ ـ الارشاد إلى النظر والتفكر والتدبر فى الآيات الانفسية والآفاقية ليدرك الناظر عظمة الله وابداعه فى خلقه ، فيمتلىء قلبه إيماناً بوجود الله ووحدانيته ، يدعم ذلك الإيمان ويقويه الاقتناعُ العقلى بعد التأمل والتدبر فى مخلوقات الله ، وفى هذا ما فيه من تقدير وتكريم للعقل البشرى .

٢ ـ قَصَصُ الأولين ، أفراداً وأمماً ، الصالحين منهم والطالحين ، بغية العظة والاعتبار ، وبغية التوجيه نحو ادراك سنة الله فى معاملة الأمم السابقة ؛ ذلك لأن القصة فى القرآن الكريم لم تكن للتاريخ وحسب ، كما يظن ـ أو لتحديد ـ المكان والزمان والأشخاص وترتيب الوقائع والحوادث وتعقيدها ، ثم حلها وانفراجها وكفى ، إنَّما كانت إلى جانب ذلك وفوق ذلك للعظة

---

(١٩) محمد عبدالعظيم الزرقانى ـ مناهل العرفان فى علوم القرآن جـ ٢ ص ١٢٤ ـ ١٢٥ .

والاعتبار والتوجيه والارشاد والهداية ، ولم تك قط للتسلية وإزجاء الفراغ كما يتوهم .

٣ ـ إيقاظ الشعور الباطنى فى الإنسان ليندفع بوحى هذا الشعور إلى التساؤل عن مبدئه ، وعن مادته ، وعن حياته ، وعن مآله ومصيره حتى يصل إلى الاعتراف بالحق جل جلاله ، مدبر الأمر ومصرِّفه ، ربِّ السموات والأرض ، وتلك هى الفطرة التى فطر الله الناس عليها .

٤ ـ أسلوب الانذار والتبشير أو الوعد والوعيد ، وللقرآن الكريم فى ذلك طريقان :

أ) الوعد والوعيد : حيث وعد المؤمنين الصالحين بعموم السلطان والتمكين فى الأرض ، وأنذر الجاحدين المفسدين بتقلص العز وانتزاع الملك وتسليط الأعداء .

ب) الترغيب والترهيب : حيث شوقهم إلى نعيم الآخرة الدائم الصافى وخوفهم من الكفر والافساد فى الأرض والطغيان على عباد الله .

٥ ـ ضرب الأمثال ، حيث اتخذ المثل وسيلة من وسائل التقريب والبيان لما يجب أن تنفعل به النفوس ، وتؤمن به القلوب ، من ذلك ما جاء فى سورة البقرة حيث جعل الشجرة الطيبة مثلاً للكلمة الطيبة ، وضرب الذبابة والعنكبوت مثلاً لمعبوداتهم التى يعبدونها لتقربهم إلى الله زلفى .

ولم تقف تلك الأمثال القرآنية عند دائرة التقريب ، إنَّما ارتفعت إلى دائرة التحدى والافحام والالجام ، كما فى قوله تعالى :

﴿يا أيها الناس ضُرب مثلٌ فاستمعوا له إنَّ الذين تدعون

من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له ، وإن يسلبهم الذُّبابُ شيئاً لا يستنفذوه منه ضعف الطالب والمطلوب﴾[20] .

فهذا مثل كان ولايزال يحمل فى طياته عناصر التحدى والاعجاز للعلم والعلماء على السواء ، وسيظل كذلك رغم تطور العلم والتكنولوجيا ، إذ من ذا الذى يستطيع أن يخلق الذبابة رغم تفاهتها وصغر حجمها ؟ ومن ذا الذى يستطيع أن يرد الحياة التى قد تتسبب الذبابة فى سلبها ـ بإرادة الله ـ عن طريق الأمراض التى تنقلها ؟ لا أحد . «إذ لو سلبتك الذبابة ذرة من النشا من طعامك فإن عباقرة الكيمياء لو اجتمعوا لا يستطيعون استرداد هذه الذرة من أمعائها ، لأنها تتحول فوراً إلى سكر بفعل الخمائر الهاضمة فما أضعف الطالب والمطلوب ، وما أضعف عبقرى الكيمياء ، وما أهون الذبابة وما أتفه ذرة النشا فى عالم هائل بلا حدود[21] .

٦ ـ الدعوة إلى التوازن الروحى والمادى ، حيث حضَّ المؤمن على ألا يجعل همه الأوحد هو المتع المادية فى الحياة الدنيا ، وفى الوقت نفسه لا ينصرف عنها أو يعتزلها ، قال تعالى : **﴿كلوا من طيبات ما رزقناكم ولا تطغوا فيه فيحل عليكم غضبى ومن يحلل عليه غضبى فقد هوى﴾**[22]

قد يقال أن الدعوة إلى التوازن هى سبب تخلف الشعوب الإسلامية ، وقد يستدل على هذا الزعم بواقع المسلمين مقارناً

---

(٢٠) الحج : ٧٣ .

(٢١) د . مصطفى محمود ـ القرآن (محاولة لفهم عصرى) ص ٢٢١ .

(٢٢) طه : ٨١ .

بواقع الكافرين فى الدنيا ، ونحن نرى أن المقارنة خاطئة فى الأساس ، لأن التديُّن لم يكن موجوداً عند كثيرٍ من مسلمى اليوم الذين عرفوا بالكسل والتواكل ، والاسلام لم يأمرهم بشىء من ذلك قط ، إنَّما يدعوهم إلى العمل الدؤوب والمسلك الحميد ، وإلى الايمان الصادق الذى يدعم ذلك التوازن المنشود ، أماما فى الغرب من تقدمٍ وحضارة فإنَّها ليست بالحضارة الحقة ، إضافة إلى أنها ناقصةٌ تقف على رجل واحدة ، حيث عنيت بالجانب الشكلى المظهرى للإنسان ، وأهملت جوهر الإنسان وحقيقته ، ومن ثم كثرت المشكلات الاجتماعية لدى أهل هذه الحضارة المزعومة ، فارتفعت نسبة الجنون عندهم ، يدعوهم إلى العمل الدؤوب والمسلك الحميد ، وإلى الايمان الصادق الذى يدعم ذلك التوازن المنشود ، أما ما فى الغرب من تقدم وحضارة فإنَّها ليست بالحضارة الحقة ، إضافة إلى أنها ناقصةٌ تقف على رجل واحدة ، حيث عنيت بالجانب الشكلى المظهرى للإنسان ، وأهملت جوهر الإنسان وحقيقته ، ومن ثم كثرت المشكلات الاجتماعية لدى أهل هذه الحضارة المزعومة ، فارتفعت نسبة الجنون عندهم ، وازدادت نسبة المقبلين على تعاطى المخدرات بين الشباب المتعطل فى بريطانيا ، ناهيك عما فى امريكا وفرنسا من فساد واباحية ترتعش لها فرائض العباد ، إلى جانب السلب والنهب لخيرات الأمم وحريات الشعوب وتدبير الدسائس ووضع العراقيل فى طريق تقدم كثير من الشعوب خاصة الشعوب الإسلامية .

فأى تقدم وأية حضارة تلك التى تبيح للانسان أن يقتل

نفسه ، بل تتيح له أن يدوس على كرامة أخيه الإنسان فيحرمه الأمن ، والحرية بل صفة الآدمية تارات .

وما قد يتراءى من مزايا إنسانية لدى هؤلاء فإنَّما هي من أوليات التعاليم الإسلامية ، أو من بقايا تعاليم الكتب السماوية التي حرفت ثمَّ نسخت ، وقد قال رسولنا صلوات الله وسلامه عليه : «**إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق**» . ولكنا عشنا زماناً نعشو إلى أضواء الناس ـ ولم نكن ندري أن الزيت الذي في قناديلهم هو زيتنا ، وعشنا زماناً تخلَّى فيه كثيرٌ من المسلمين عن كثير من تلك الفضائل الأخلاقية ، وعشنا زماناً وجد فيه من يحسبون أن التدين الحقَّ هو «الكهنوت» أو التقوقع والابتعاد عن دائرة العلم والعمل ، وحاشا أن يكون التدين الحق كذلك ، خاصة في الإسلام الذي يأمر بالعلم والعمل ، ويربي الإنسان المسلم على نكران الذات وحب التضحية من أجل الآخرين دون طمع أو حقد أو حسد ..

ونعتقد أن خشية الله في السر والعلن ، في المتجر والمصنع ، في الحقل والمدرسة ، في كل زمان ومكان هو التدين الحق ، ولا يمكن الوصول إلى مثل هذا التدين إلّا عن طريق القرآن الكريم الذي يجب أن نتدبره وأن نتفيَّأ ظلاله دوماً لنستمد منه النور لدربنا والأمل لحياتنا التي نتوخَّى فيها ولها التوازن ، بين المادة والروح ، حتى لا نكون من الأخسرين أعمالاً ، في الدنيا والآخرة ، ولا نتيح الفرصة للمغرضين الملحدين من أمثال «م . ر . رحماتوف» ، كاتب اللجنة المركزية للحزب الشيوعي بروسيا ـ سابقاً ـ حيث ألف كتاباً أو كتيباً في سبعين صفحة بعنوان : (هل يمكن الاعتقاد بالقرآن) كان فيه

من الذين يهرفون بما لا يعرفون[٢٣] بغية الدس والتشويه للنيل من الإسلام والمسلمين ، كما قرر الأستاذ عبدالله كنُّون .

٤ ـ القرآن والإيمان بالأديان المنزلة :

كلما تلونا القرآن الكريم تلاوة تدبر تأكدت لنا حقيقةٌ لا مراء فيها ، هي أن القرآن الكريم ماجاء ليناقض الموسوية والعيسوية أو ينازعهما الحقائق الثابتة والتى تعتبر قطب الرحى فى كل دعوة إلى الله ؛ إذ أكد القرآن فى أكثر من موضع تأكيداً قاطعاً أن المؤمن هو من آمن برسالة محمد ﷺ وفى الوقت نفسه يؤمن بموسى وعيسى وجميع الرسل ، ويوقرهم دون تمييز ، بل يشعر فى قرارة نفسه بوجوب الأدب معهم جميعاً دون تفريق ، لأنهم رسل الله ، ولأن القرآن الكريم قد وجهه إلى ذلك ، قال تعالى : ﴿**آمن الرَّسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كلٌّ آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحدٍ من رسله**﴾[٢٤] .

ولم يكن إيمان المسلم بالرسل السابقين إيمان مجاملةٍ أو تقدير شكلى ، ولكنه إيمانٌ بمبادئهم جميعاً ، واستسلامٌ لإرادة الله التى أعلنت متتابعةً عبر أولئك الرسل بغض النظر عن الزمان أو المكان الذى كانت فيه رسالة الرسول ، وهو لا يستند فى هذا الإيمان إلَّا على ما جاء فى القرآن الكريم ووفق توجيهاته ، قال تعالى : ﴿**قل آمنا بالله ومآ أنزل علينا وما أنزل على إبراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى والنبيون من ربهم لا نفرق بين**

(٢٣) عبدالله كنون ـ الرد القرآنى على كتيب هل يمكن الاعتقاد بالقرآن ص : ٥ ـ ١٥ .

(٢٤) البقرة : ٢٨٥ .

أحدٍ منهم ونحن له مسلمون﴾[٢٥] فالإيمان بجميع الرسل شرط صحة الإيمان فى الإسلام.

(ب) عموم رسالة محمد ﷺ :

جميع الرسل الذين أوحى الله إليهم بشرعه وعهد إليهم بابلاغه البشر تنطبق عليهم صفات البشر، لكنهم أفضل البشر واكملهم، لعصمتهم وتشريفهم بالرسالة، وقد بعث كل منهم فى أمته، وأوتى كل منهم شريعة تناسب زمان ومكان أمته، باستثناء نبينا محمد ﷺ؛ إذ لم تكن شريعته موقوتة بزمان أو مكان، إنَّما كانت للبشرية كلها أينما كانوا وفى أىِّ زمان وجدوا.

وقد عنى القرآن الكريم عنايةً كبيرةً ببيان بعثة رسل الله السابقين وتوضيح حقيقة ما كلِّفوا به، من ذلك قوله تعالى: **﴿لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم النَّاس بالقسط﴾**[٢٥] وقوله: **﴿إنَّا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوحٍ والنبيين من بعده وأوحينا إلى إبراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان وآتينا داوود زبوراً، ورسلاً قد قصصناهم عليك من قبل ورسلاً لم نقصصهم عليك وكلَّم الله موسى تكليماً، رسلاً مبشرين ومنذرين لئلا يكون للنَّاس على الله حجةٌ بعد الرُّسل وكان الله عزيزاً حكيماً﴾**[٢٦].

(جـ) تفضيل محمد وأمته :

قلنا إنَّ شريعة كل رسول كانت موقوتةً بزمان ومكان أمته

---

(٢٥) آل عمران : ٨٤.
(٢٥) الحديد : ٢٥.
(٢٦) النساء : ١٦٣ ـ ١٦٥.

باستثناء محمد ﷺ ، فإنَّه قد ختمت بنُبوَّته النبوات وبرسالته الرسالات ، فلا نبي بعده ولا رسول ، بل إنَّه قد فُضِّل على سائر الأنبياء والمرسلين ، قال ﷺ : **«فضلت على الأنبياء بستٍّ : أعطيت جوامع الكلم ، ونُصرتُ بالرُّعب ، وأُحلت لى الغنائم ، وجعلت لى الأرض مسجداً وطهوراً ، وأرسلتُ إلى الخلق كافة ، وختم بى النبيون»**[٢٧] .

وكذلك فضِّلَتْ أمَّته على سائر الأمم ، وقد أثبت هذا التفضيل القرآن الكريم حيث قال : **﴿كنتم خير أمةٍ أخرجت للنَّاس﴾**[٢٨] وقال : **﴿وكذلك جعلناكم أمَّةً وسطاً لتكونوا شهداء على النَّاس ويكون الرسول عليكم شهيداً﴾**[٢٩] .

هذه الوسطية التى تُشير إليها تلك الآية نجدها ماثلة فى رسالة الإسلام كلها ، بل هى جماع دعوة الإسلام ، وبها صار الإسلام صراطاً مستقيماً ، ومن ثم كانت شريعته صالحة لكل زمان ومكان ..

(د) وسطية الإســلام :

وسطيَّة الإسلام تتمثل فى أنَّه لا إفراط ولا تفريط ، إنَّما هى التوسط فى كل شيء ، سواءٌ أكان ذلك فى جانب العقائد ، أو جانب الأخلاق ، أو فى صلة الإنسان بربه ، أو بالحياة فى جميع جوانبها ..

هذه الوسطية تتفق مع الفطرة البشرية عكس الافراط والتفريط

---

(٢٧) مسلم ـ كتاب المساجد ومواضع الصلاة ـ رقم (٥٢٣) .
(٢٨) آل عمران : ١١٠ .
(٢٩) البقرة : ١٤٣ .

فإنهما منافيان للفطر البشرية ، ولسنن الاجتماع التى تقضى بالتوسط فى كل شىء ، ضماناً للنماء والبقاء والاستمرار دون انحلال أو اضمحلال .

فنى مجال العقيدة تجد عقيدة الإسلام وسطاً بين عقيدة من ينكرون وجود أى إله (ملحدون) ، وعقيدة من يؤمنون بتعدُّدِ الآلهة (مشركون) حيث دعا الإسلام ويدعو إلى التوحيد الخالص **﴿قُل هو الله أحدٌ ، الله الصَّمد ، لم يلد ، ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحدٌ﴾** .

وفى مجال الأخلاق وصلة الإنسان بالحياة فى شتى مجالاتها تجد عقيدة الإسلام وسطاً بين دعوة من ينكرون كل الفضائل ، ودعوة من يفرطون ويبالغون فى تصور الفضيلة فيجعلونها أمراً شاقاً صاداً لكثير من النفوس البشرية فالفضيلة فى الإسلام تتوسط الحدَّيْنِ المتعارضين فى كل شىء : لا جبن ولا تهوُّر ، لا بخل ولا تبذير ، لا استكبار ولا استخذاء ، لا جزع ولا استكانة ، لا رهبانية ولا فسوق .

كل هذه المعانى نجدها واضحة فى القرآن الكريم ، من ذلك قول الله عزّ وجلّ : **﴿ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملُوماً محسوراً﴾** [٣٠] وقوله **﴿والَّذين إذا انفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواماً﴾** وقوله : **﴿وابتغ فيما آتاك الله الدَّار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدُّنيا﴾** [٣٢] وقوله : **﴿فإذا قضيت الصَّلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله﴾** [٣٣]

---

(٣٠) الاسراء : ٢٩ .
(٣١) الفرقان : ٦٧ .
(٣٢) القصص : ٧٧ .
(٣٣) الجمعة : ١٠ .

وقوله : **﴿قُل من حرَّم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق﴾**[٣٤] .

أما فى مجال التشريع ووضع القوانين فإننا نجد تلك الوسطية متمثلة فى عدم ترك المسلمين ليشرِّعوا لأنفسهم بأنفسهم فى كل شىء ، وعدم تقييدهم بالتشريع السماوى فى كل شىء ، فشريعة الإسلام قيدت وفوضت ، قيدت فيما لا تستقلُّ العقول بادراكه ، ولا تختلف المصلحة فيه باختلاف الزمان والمكان كالعبادات والمواريث ، ثم فوَّضت بأنْ وضعت الأُطر الكبيرة والخطوط العريضة للمعاملات بين الناس بعضهم بعضاً ، أفراداً وجماعات ، أمماً وشعوباً ، فتركت فسحةً أو مساحة بين هذا وذاك لتحرك العقل البشرى فى كل زمان تقديراً للعقل ، وتلك الفسحة المتروكة أو المساحة هى دائرة الاجتهاد الذى يعدُّ ركناً من أهم أركان الشريعة الإسلامية الخاتمة الخالدة .

وهذه الفسحة تُؤكد لكل ذى بصر صلاحية الإسلام لكل زمان ومكان ، وهداية القرآن للبشرية جمعاء ، لا سيما وأنَّ القرآن لم يكن فيه أىُّ منزع إلى عرق أو طائفة أو جماعة ، إنَّما ينبثق عن أسس ومبادىء إنسانية مطلقة ، بحيث تأتى عامة فروعه متطابقةً معها فى دقة واطراد[٣٥] وان الإنسان ـ أى إنسان ـ إنما هو عبدالله وخليفته فى الأرض ، ولا يمارى فى هذه الحقيقة إلَّا من فقد عقله وبقى فى عالم الهلوسة والمكابرة والعناد من أعداء الإسلام ، أو من الذين ينتمون إلى الإسلام بالتابعية والجنسية فقط .

---

(٣٤) الأعراف : ٣٢ .

(٣٥) د . محمد سعيد رمضان البوطى ـ من روائع القرآن ص ٢٦١ .

٥ ـ الإنسان فى القرآن عبدالله وخليفته :

لقد قرر القرآن الكريم ـ فى أكثر من موضع ـ عبودية الإنسان لله رب العالمين ، بل أكد القرآن الكريم أنه ما من مخلوق فى العالم العلوى والسفلى إلَّا وهو خاضعٌ مطيعٌ لله سبحانه وتعالى شاكرٌ لأنعمه التى لا تحصى ولا تعد ، يسبح بحمده ..

ويتميز الإنسان من بين تلك المخلوقات بنعمة العقل وبالتكليف فهو يشكر أنعم ربه ويلتزم توجيهاته ولا يدين لسواه ، إلَّا من فسدت فطرته التى خلق عليها فإنه يصير كنوداً عنيداً ، لا يُقِرُّ بدينٍ أو ديَّان ، ولا يعرف عظمة للرحمن ، وفى الوقت نفسه يعبد الحجر أو المدر ، والشجر أو البشر ، من حيث يدرى ولا يدرى ؛ إذ يجعل همَّه ووجهته المادة ومن يعين على توفيرها من البشر ، فيصبح المال فى قلبه ويستولى على عقله ، يأتمر بأمر المال وأصحاب المال ، وينتهى لنهيهم ، وذاك ـ فيما نعتقد ـ تقديسٌ أو إجلالٌ فى غير محله ، وهكذا كان المشركون القدامى يعبدون ويقدسون المادة ، ولا يعترفون للرحمن ، ولا يقلُّ عنهم شركاً من قالوا اتخذ الرحمن ولدا ، وقد تولَّى القرآن الكريم الردَّ على هؤلاء حيث قال :

﴿وقالوا اتَّخذ الرحمن ولداً . لقد جئتم شيئاً إدّاً ، تكادُ السَّمواتُ يتفطرن منه وتنشقُّ الأرض ، وتخرُّ الجبال هدّاً ، أن دعوا للرَّحْمنِ ولدا ، وما ينبغي للرحمن أن يتَّخذ ولداً ، إن كلُّ من فى السَّموات والأرض إلَّا آتى الرَّحمن عبداً﴾ (٣٦) .

والإنسان داخل فى إطار (مَنْ) فى الآية الكريمة ، فهو عبدالله دون ريب ، ولكن ما المرادُ بهذه العبودية ؟ أيراد بها الإذلال والاهانة والقضاء على إنسانية الإنسان ومحو كرامة هذا العبد المملوك

---

(٣٦) مريم : ٨٨ ـ ٩٣ .

أم ماذا ؟ كلا ثم كلا .

ذاك معنى غير وارد إلَّا عند من يريدون إثارة الشبهات ، لأن الغاية من تلك العبودية هى المحافظةُ على كرامة الإنسان والسُّمُوّ بإنسانيته من درك البهيمية ومن الخضوع والاذلال لحجر أو بشر (جنيه أو دولار) وفضة أو ذهب .

المراد بتلك العبودية الارتفاع والسمو بإنسانية الإنسان عبر حَمْدِ خالق الكون وتطبيق شرعه لمصلحة الإنسان ذاته أولاً وآخراً ، لأن الله لا ينال من حمد العبد أو التزامه شيئاً ، ولكن يناله منه التقوى ، ومن ثم قال تعالى : **﴿وما خلقت الجنَّ والإنس إلّا ليعبدون ، ما أريد منهم من رزقٍ وما أريد أن يطعمون﴾**[٣٧] أى ولا أريد منهم أن يطعموا خلقى ولا أن يطعمونى ، فأنا الغنى الحميد ، قال البيضاوى : والمراد أن يبين أن شأنه مع عباده ليس شأن السادة مع عبيدهم ، فإنَّهم إنَّما يملكونهم ليستعينوا بهم فى معايشهم ، فكأنَّه سبحانه يقول : ما أريد أن استعين بهم كما يستعين السادة بعبيدهم ، فليشتغلوا بما خلقوا له من عبادتى .[٣٨] فهى عبودية للعبادة ، والعبادة نقاءٌ وتطهيرٌ ، وتربيةٌ وتهذيبٌ يحقق المنفعة المتبادلة بين العباد ، ويعينهم على عمارة الكون دون تباغض أو حسد ، ودون إفساد أو سفك للدماء .

ولو كان فى تلك العبودية أىُّ شىء من الإذلال وتحطيم كرامة الإنسان لما أضافها الله سبحانه وتعالى إلى أشرف خلقه وسيد رسله ، نبينا محمد ﷺ ، ولما نعته بصفة العبودية فى أشرف المقامات ، على حين أنه نعته بها فى ثلاث مقامات عليَّة :

---

(٣٧) الذاريات : ٥٦ ـ ٥٧ .

(٣٨) محمد على الصابونى ـ صفوة التفاسير ـ جـ ٣ ص ٢٥٩ .

١ ـ مقام الإسـراء حيث قال : ﴿**سبحان الذى أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله لنريه من آياتنا إنَّه هو السميع البصير**﴾ [٣٩] .

٢ ـ الوحى حيث قال : ﴿**فأوحى إلى عبده ما أوحى**﴾ [٤٠] .

٣ ـ مقام الدعاء حيث قال : ﴿**وأنَّه لمَّا قام عبدالله يدعوه كادوا يكونون عليه لبداً ، قل إنَّما أدعوا ربِّى ولا أشرك به أحداً**﴾ [٤١] .

فلو ثاب الإنسان إلى عقله وابتعد عن مفسدات الفطرة النقية لأدرك حقيقته ، ولما استنكفَ أن يكون عبداً عابداً شاكراً لمن أوجده ، ولكن : ﴿**إنَّ الإنسان لربِّه لكنود**﴾ [٤٢] ومن ثم كانت دعوة القرآن له كى يتأمل فى ذاته : ﴿**فلينظر الإنسان ممَّ خُلق خُلق من ماء دافق يخرج من بين الصُّلب والتَّرائب**﴾ [٤٣] ﴿**والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً وجعل لكم السَّمع والأبصار والأفئدة لعلَّكم تشكرون**﴾ [٤٤] ﴿**أو لم ير الإنسان أنَّا خلقناه من نُّطفةٍ فإذا هو خصيمٌ مبينٌ**﴾ [٤٥] .

نعم الإنسان شديد الخصومة والجدال بالباطل ، يخاصم ربه وينكر قدرته ، ويكذب بالبعث والنشور ، فى حين أنَّ الله سبحانه وتعالى قد خلقه من ماء مهين ، وخلق أباه من طين ، ثم كرَّمه وذريته أحسن تكريم ، حين أمر الملائكة بالسجود

---

(٣٩) الاسراء : ١ .
(٤٠) النجم : ١٠ .
(٤١) الجن : ١٩ ـ ٢٠ .
(٤٢) العاديات : ٦ .
(٤٣) الطارق : ٥ ـ ٧ .
(٤٤) النحل : ٧٨ .
(٤٥) يس : ٧٧ .

لآدم فسجدوا إلَّا إبليس أبى واستكبر ، قال تعالى : ﴿**ولقد خلقناكم ثمَّ صوَّرناكم ثمَّ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلَّا إبليس لم يكن من الساجدين**﴾[٤٦] .

ثم جعل الله الإنسان خليفة فى الأرض بغية عمارةِ الكون واظهار حكمة الله وعظمته وعدالته فى الأرض بما يلتزمه الإنسان من منهج العبودية لله تعالى لا ليفسد فى الأرض ويسفك الدماء ، ولا ليتألَّه فى الأرض فيعبد من دون الله ، أو يعبد ما سوى الله ، قال تعالى : ﴿**وإذْ قال ربك للملائكة إنى جاعلٌ فى الأرض خليفةً قالوا أتجعلُ فيها من يفسد فيها ويسفك الدِّماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إنِّى أعلم ما لا تعلمون**﴾[٤٧] .

وقول الملائكة ليس على سبيل الاعتراض على الله ، ولا على وجه الحسد لبنى آدم كما يتوهمه بعض المفسرين ، وقد وصفهم الله تعالى بأنهم لا يسبقونه بالقول ، أى لا يسألونه شيئاً لم يأذن لهم فيه ، وإنَّمَا هو سؤال استعلام واستكشاف عن الحكمة فى ذلك ، يقولون يا ربَّنا ما الحكمةُ فى خلق هؤلاء مع أنَّ منهم من يفسد فى الأرض ويسفك الدِّماء[٤٨] .

أجابهم الله تعالى بقوله : ﴿**إنِّى أعلم ما لا تعلمون**﴾ أى إنى أعلم من المصلحة الراجحة فى خلق هذا الصنف على المفاسد التى ذكرتموها ما لا تعلمون أنتم ، فإنِّى سأجعل فيهم الأنبياء وأرسل لهم الرسل ، ويوجد منهم الصديقون والشهداء

---

(٤٦) الأعراف : ١١ .

(٤٧) البقرة : ٣٠ .

(٤٨) ابن كثير – مختصر ابن كثير جـ ١ ص ٤٩ .

والصالحون والعباد والزهاد ، والأولياء والأبرار والمقربون والعلماء والعاملون ، والخاشعون ، والمحبون له تبارك وتعالى ، المتبعون رسله صلوات الله وسلامه عليهم .

فليس الناس جميعاً مفسدين فى الأرض ، وليسوا كلهم سواء ، وعليه نرى أنه من الواجب على كل داعية بالقرآن وإلى القرآن أن يعرف طوائف الناس الذين يدعوهم إلى عبادة الله والتزام شرعه وهديه ، نعم عليه أن يعرف طوائف الناس الذين يدعوهم وأن يعرف حقائق نفوسهم ، وقد تولّى القرآن الكريم بيان ذلك كله ؛ إذْ جعلهم من حيث الاستجابة للدعوة وعدم الاستجابة لها ثلاثة أصناف أو ثلاث طوائف هى :

١ ـ طائفة المتقين الذين حافظوا على فطرهم وتجنَّبوا ما يفسدها ، أو يعكر صفوها ، فبقيت صلتهم بالله قويةً واستجابتهم لتوجيهاته عظيمة ، وقد وصفهم الله بقوله : ﴿**الَّذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصَّلاة وممَّا رزقناهم ينفقون**﴾[٤٩] كما ذكر لهم صفات أخريات فى آيات أخريات ..

٢ ـ طائفة الكافرين الذين لم يحافظوا على فطرهم ، ولم يعملوا على تجنيبها عوامل التحطيم والدمار الخلقى والروحى المتمثلة فى الموروثات الفاسدة ، من أوهام وأباطيل وأراجيف ، ومن تسلط المادة والعصبية الغاشمة ، فطغوا وبغوا وعاثُوا فى الأرض فساداً ، وأخذوا يحاربون الله ورسوله والمتقين فى السر والعلن ، وقد ذكر الله أوصافاً عديدة لهذه الطائفة تذكرةً وذكرى لكل عبد منيب ، ليُعِدَّ العُدة ، ويتخذ الأُهبة اللازمة لاتقاء شرِّ هؤلاء المجاهرين بالعصيان والمشهرين سيوف العداوة

---

(٤٩) البقرة : ٣ .

والبغضاء ، حيث قالوا : **﴿قلوبنا فى أكنَّةٍ مِّمَّا تدعونا إليه وفى آذاننا وقرٌ ومن بيننا وبينك حجابٌ﴾** [(٥٠)] ومن ثم كان توجيه الله لنبيه الكريم ماثلاً فى قوله : **﴿إنَّ الَّذين كفروا سواءٌ عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون ، ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوةٌ ولهم عذابٌ عظيمٌ﴾** [(٥١)] .

٣ ـ طائفةُ المنافقين ؛ وهم الذين فسد باطنهم ، وتحوَّلت وتبدلت فطرهم ، لكنهم يظهرون بين المسلمين كالمسلمين ، يقولون كلمة التوحيد ويصلون ، لكنهم يخادعون الله ورسوله والمؤمنين ، يدسون الدسائس ويدبرون المكائد فى الخفاء ، فهم لا يجاهرون بالكفر والعناد ، لكنهم يسترون أعمالهم ويتسترون ، لهم وجهان فى كل حالة وفى كل لحظة ، وهم موجودون فى كل زمان ومكان ، وقد وصفهم الله تبارك وتعالى بقوله : **﴿مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء﴾** [(٥٢)] وقوله : **﴿وإذا لقوا الَّذين آمنوا قالوا آمنَّا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنَّا معكم إنَّما نحن مستهزئون﴾** [(٥٣)] .

فليكن المؤمن كيِّسا فطناً لأمثال هؤلاء وغيرهم ، لأن المسلمين لم يبتلوا «في أى زمان ومكان بشر من هذه الطائفة ، تدبر المكائد ، وتروج الأكاذيب ، وتزعزع المؤمنين ، وتفسد روابط المحبين ، وتنفث سموم الشر والفتن ، وقد اهتم القرآن بالحديث عنهم والتحذير منهم ، حتى لا نكاد نجد سورة من سور القرآن المدنية تخلو من

---

(٥٠) فصِّلت : ٥ .
(٥١) البقرة : ٦ ـ ٧ .
(٥٢) النساء : ١٤٣ .
(٥٣) البقرة : ١٤ .

ذكرهم ولفت الأنظار إلى أوصافهم ، بل نزلت فيهم سورة كاملة سميت باسمهم» (٥٤) .

وما ذلك كله إلّا من أجل مصلحة الإنسان فى الأرض واسعاده فى الحياة الباقية الخالدة ، إذن تلك الدسائس والمكائد لا بد أن تورث الإحن والبغضاء والشحناء بين الناس ، ومن ثم ينعدم الاستقرار (النفسى والمادى) ويعم الدمار (المادى والمعنوى) فرحمةً بعبد الله – فى أى زمان ومكان – كانت بعثة الرسل ، وكان توجيه القرآن الكريم وتحذيره من الكافرين والمنافقين ، فطوبى للمؤمنين الذين لا يحيدون قيد أنملة عن شرع الله ، والذين يقدرون النعم ما ظهر منها وما بطن ، ويحمدون المنعم فى السر والعلن ، كيلا يكونوا عبيداً للنعم ، وشتان بين عبيد النعم وعبيد المنعم ، ولهذا قال بعض العارفين : «عبيد النعم كثيرون وعبيد المنعم قليلون ، فالله تعالى ذكّر بنى إسرائيل بنعمه عليهم ، حتى يعرفوا نعمة المنعم ، قال ﴿**اذكروا نعمتى**﴾ ، وأما أمة محمد ﷺ فقد ذكّرهم بالمنعم فقال ﴿**فاذكرونى أذكركم**﴾ ليتعرفوا من المنعم على النعمة وشتان بين الأمرين» (٥٥) .

فطوبى للمؤمنين الذين يعرفون تلك النعم ويقدرونها حق قدرها بالشكر واخلاص العبادة لله تبارك وتعالى ، ما كان واجباً منها وما لم يكن ؛ ليصبح كل عمل من أعمالهم فى الحياة الدنيا عبادة لله تبارك وتعالى .

---

(٥٤) محمود شلتوت – تفسير القرآن الكريم – ص ٧٠ .
(٥٥) محمد على الصابونى – صفوة التفاسير – جـ ١ ص ٥٤ .

الفصـــل الثالث
الدعوة إلى الله بناء للإنسان بناء متكاملاً

١ ـ صعوبة البناء ومشقة التحوُّل .
٢ ـ الدعوة تجنِّب الأمَّة عوامل الضعف والوهن .
٣ ـ التطبيق العمليُّ يعمق الفكرة ويؤصِّل المنهج .

١ ـ صعوبة البناء ومشقة التحول :

الدعوة إلى الله ما هى إلّا جهود متآزرة بوسائل مختلفة من أجل بناء الإنسان بناء متكاملاً ، بناء فكره ومشاعره ، وبناء روحه وعقله ، وقلبه ومعنوياته ، ليكون بذلك البناء عاملاً من عوامل نقل الأمة كلها من محيط إلى محيط ، فما أصعب هذا البناء ، وما أشق ذلك النقل ، طالما كانا مرتبطين بالإنسان وليس بالحائط أو الجدران ؛ إذْ لا يوجد شيءٌ فى الكون كُلِّهِ أصعب مراساً من الإنسان ، فهو عصيُّ الانقياد ، كثيرُ اللَّددِ واللجاج ، لا يُلْقِى قياده إلّا لهواه ، ولا يستسلم إلّا لشهواته ، فما أطوعه «لنداء قلبه إذا ناداه إلى خير أو شر ، وماأصبره على مايصيبه حينئذ من مشقة الجهد ونفقة المال ، بل ماأجمل ذلك وألذه لديه» .

(١) البهى الخولى ـ تذكرة الدعاة ص ٣٥ .

ومن ثم نرى أن مهمة الداعية إلى الله من أشق المهام وأصعبها ، خاصةً عندما تتمرَّد الجهالة ويكثر أدعياء المعرفة ، إلى جانب التسلط والطغيان على المؤمنين من جانب أعداء الدين .

ورغم تلك المشقة والمعاناة تكون الدعوة لازمةً وضرورةً من ضرورات الحياة ، وتكون دعامةً من دعائم التقدُّم والتطور رغم الصعاب التى قد تعترض المسيرة ؛ لأن الدعوة غرسٌ للعمل الصالح دون غرض أو هوى ، تعهدٌ له بالسقى والرعاية دون منٍّ أو رياء ، حتى ينمو ويتفرع وتصبح ثماره دانية القطوف ، بل تبقى دوحته مستمرة الايتاء والعطاء كلما توفر التجرد وابتعد الغرض والهوى ، ولابدَّ من الاشارة إلى أنَّ التجرد فى العمل هو غاية العبادات كلها ، بدءً بتلاوة القرآن ، ومروراً باماطة الأذى عن الطريق وأمثالها ، وانتهاءً بأداء الفرائض والواجبات ، كل تلك الأعمال يجب أن تكون خالصةً لله تبارك وتعالى ، دون منٍّ ، أو دون جرى وراء الشهرة وكسب اعجاب الناس ؛ لأن ذلك من شأنه أن يفسد العمل ويجعله قبيحاً ، ولا يكون عملاً صالحاً ؛ لأن العمل الصالح قرين الاخلاص والتجرد دوماً ، قال تعالى ﴿**وما أمروا إلَّا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصَّلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيِّمة**﴾[2] وقال : ﴿**ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال إننى من المسلمين**﴾[3]

---

(٢) البينة : ٥ .

(٣) فصلت : ٣٣ .

حيث تشير الآية الأولى إلى أن دين الإسلام دين الملة المستقيمة إنما يتمثل فى إخلاص الدين لله والميل عن الشرك وأهله ، على أن تنعكس آثار هذه العبادة الخالصة صلاةً وزكاةً وما يستلزمها ويتبعها ، وتشير الآية الثانية إلى ضرورة الربط بين الدعوة والعمل الصالح ؛ إذ لا معنى لقول بلا عمل ، ومن ثم قال ابن كثير فى تفسير تلك الآية «أى وهو فى نفسه مهتدٍ ، فنفعه لنفسه ولغيره ، وليس هو من الذين يأمرون بالمعروف ولا يأتونه ، بل يأتمر بالخير ويترك الشر ، وهذه عامة فى كل من دعا إلى الخير ....»[4] وقال على كرم الله وجهه : «قصم ظهرى رجلان : عالم متهتِّك وجاهلٌ متنسك» وقال الشاعر :

إبدأ بنفسك فانهها عن غيِّها
فإذا انتهت عنه فأنت حكيم
فهناك يقبل إنْ وعظت ويقتدى
بالرَّأى منك وينفع التعليم

وقال الآخـــر :

وغير تقـــىٍّ يأمر النَّاس بالتُّقى
طبيبٌ يداوى النَّاس وهـــو عليـــل

وقال أبوالعتاهية :

وصفت التُّقى حتى كأنك ذو تقى
وروح الخطايا من ثيابك تســطع

فالداعية العالم العامل المتجرد يكون أثره عظيماً ونفعه

(٤) ابن كثير - مختصر تفسير ابن كثير - جـ ٣ ص ٢٦٣ - ٢٦٤ .

عميماً ، حيث يعمل عندئذ على توفير الاستقرار النفسى والروحى لأفراد الأمة ، فينصرف كُلٌّ فرد من أفرادها إلى الجد والاجتهاد فى عمارة الكون بحكم أنه خليفة الله فى الأرض ، وتلك العمارة الكونية هى التى تسمَّى اليوم بالتنمية الشاملة .

ومن ثم نرى أن الدعوة إلى الله لها دورٌ كبيرٌ وأثر فعال فى التنمية بمفهومها الواسع منذ القدم ، فقط اختلفت الوسائل وتعددت الطرق والأساليب ، وتفاوتت من عصر إلى عصر ، ولكنها فى جميع العصور كانت تعنى بالإنسان باعتباره الطاقة ذات التأثير الفعال فى مجالات التنمية المختلفة ، وباعتباره الهدف والغاية من العمليات التنموية ، فهو أداة التغيير ، وهو الهدف من التغيير ، لكنَّهُ لن يكون فعَّالاً ولن يكون قادراً على التغيير دون توجيه وتبصير ، بحيث يدعوه ذلك التوجيه إلى تغيير ما بنفسه ليتغير ما حوله **﴿إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾** ويدعوه ذلك التوجيه أيضاً إلى الابتعاد عن عوامل الأثرة والأنانية ، ونوازع الحسد والحقد وعوامل الجبن أو الخور والاستكانة ، ودوافع الشح والبخل والتقتير ، إلى جانب عشق السلطة والتسلط على عباد الله ، فهذه جميعاً من الأشياء التى يجب على الدعاة أن يعملوا على تجنيب أنفسهم منها ثم تجنيب بقية أفراد الأمة ؛ لتصبح البيئة بجوانبها المختلفة (نفسية ، اجتماعية ، روحية ، سياسية ، اقتصادية) نقيَّة صالحة معينةً على العمل الدؤوب والتنمية المضطردة .

٢ ـ الدعوة إلى تجنب الأمة عوامل الضعف :

بهذا تكون الدعوة إلى الله قد بنت الإنسان بناءً متكاملاً ، وتكون الدعوة إلى الله قد جنَّبتِ الأمة عوامل الضعف الذى يتسرب فيفتٌّ فى عضُدِ الأمة من حيث تدرى ولا تدرى ، تلك العوامل التى أثبتها الحوادث التاريخية وسنن الاجتماع وأكدت أنها هى التى تقود المجتمعات البشرية إلى الفشل وفقدان العزة وضعف الشوكة . ونعتقد أن تلك العوامل مهما تنوعت وتفاوتت فإنها تدور فى فلك النقاط التالية :

١ ـ الهزيمة النفسية التى تجعل أفراد المجتمع يتأثرون تأثيرات ضارة بما يثار بينهم من مثيرات وما يذاع من أراجيف .

٢ ـ التفكك وعدم التفاف الأفراد حول هدف وغاية مشتركة تشد الجميع وتجذبهم إليها جذباً .

٣ ـ السكوت على ما يرتكبه بعض أبناء الأمة من مخالفات مالية وغير مالية تقديراً لحسبهم أو نسبهم ، واتّقاءً لسلطتهم وتسلطهم .

٤ ـ السكوت على ما يرتكبه بعض كبراء الأمة وبعض القائمين على أمرها من فسوق وآثام ، فتنتشر حمَّى ذلك الوباء فتعم الأمة وتصبح البيئة ملوثة .

٥ ـ القسوة التى تملأ قلوب معظم أغنيائها ، وتحول بينهم وبين الشعور بحاجة فقرائها ، فلا يحسُّون بها ولا يدركون أنهم مستخلفون فى تلك الأموال مؤتمنون عليها وعلى حسن التصرف فيها جمعاً وانفاقاً ، وأنَّ فيها حقاً معلوما للسائل والمحروم .

٦ ـ الاختلاف الذى ينشأ عن حب المال والتطلع إلى التكاثر والصراع حول السلطة والتسلط ، دينية كانت السلطة أم سياسية أم اقتصادية عند من يفصلون بين هذه وتلك ..

٧ ـ الاستسلام للجزع والهلع لما يصادفها من أحداث وصعاب وعدم التفكير فى المقاومة أو التوقِّي حتى تخر الأمة صريعةً أمام الأحداث والخطوب أو تستسلم للأعداء المحاربين حرباً مادياً أو معنوياً .

ومما يحز فى النفس أن معظم هذه العوامل ـ إن لم يكن كلها قد أخذت تظهر فى مجتمعاتنا الإسلامية بنسبٍ متفاوتةٍ من مجتمع إلى مجتمع ومن عامل لآخر ، ففقدت مجتمعاتنا كثيراً من جوانب العزَّة والكرامة ، وبنسب متفاوتة أيضاً ، وسيأتى الدمار ـ للأمة ـ ماثلاً فى أشكال وصور مختلفة عن دمار الأمم السابقة ، يوم أن يحق عليها القول ، إلّا أن هذا لا يعنى استسلام الأمة وعدم توقِّيها ، ولكنه يعنى التنبيه والدعوة إلى مراجعة المواقف ومحاسبة النفس ، خاصةً بالنسبة للدعاة ، ثم الحكام القائمين على أمر المسلمين ، والذين جعلوا شرع الله وراء ظهورهم .

على الدعاة أن يراجعوا خطواتهم ؛ لتطمئن قلوبهم ، ثم يطمئن المدعوون بأن جهود الدعاة تسير وفق المنهج الإسلامى السليم ، وحسب التوجيه الربانى الحكيم ، وتستثمر كل الامكانات الفكرية فى فقه سنن الكون ودراسة عبر التاريخ وعظاته وقوارعه ، لتمد كل فرد من أفراد المجتمع المسلم بما يحتاج إليه فى مجال الفقه السياسى والاجتماعى

والاقتصادى ، وفى مجال الدعم النفسى والروحى ، فيتعلم الفرد المسلم من ارتفاع صوت الأذان المتكرر رفع الصوت فى قول الحق ، وعدم انزال الرأس لغير الواحد الأحد الفرد الصمد ، ويتعلم من توجيهات الدعاة وتطبيقاتهم العملية معنى الأثرة والايثار ، وحلاوة الصِّدق فى القول والعمل ، وعذوبة الجد والاخلاص فى العمل ، وجمال الطُّهر والنقاء فى اللِّسان والبدن ، وفى الكلمة والضمير ، كما يدرك من توجيهات الدعاة وتطبيقاتهم العملية روعة الحق ، وعظمة الصُّمود والوقوف إلى جانب الحق صفاً واحداً دون تثبيط بخلافات جزئية ، أو نظرات عرقية ، أو غير ذلك .

٣ ـ التطبيق العملى يعمِّق الفكرة ويؤصل المنهج :

بهذا وذاك وغيره يتعلَّم الفرد المسلم من أسلوب دعوة الدعاة ومن تطبيقاتهم العملية المعنى السامى والمغزى العميق لقول الرسول ﷺ : «**المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا**» . فيتعمق ذلك المعنى فى نفسه ويطبع كل معاملاته مع أخيه المؤمن أينما كان وفى كل زمان ، يعين أخاه فى كل شيء ، حتى فى مجاهدة نفسه ، وذلك عن طريق التواصى بالحق والتواصى بالصبر ، فهل فعل الدعاة كل ذلك ؟ إبراءً للذمة وأداءً للأمانة ، إنَّا لنأمل ونرجو .

أما الحكام الذين جعلوا شرع الله وراء ظهورهم فعليهم مراجعة مواقفهم من الإسلام ودعاة الإسلام إن كانوا مسلمين حقاً ، بحيث لا يكون وقوفهم إلى جانب الإسلام ودعاة الإسلام وقوفاً مظهرياً وشكليّاً ، بقصد التباهى

والافتخار فى اللقاءات والمؤتمرات الإسلامية ، أو بقصد الابتزاز السياسى الذى لا يورث الأمَّة سوى النكبات ، ومن ثمَّ يجعلون الإسلام شعاراتٍ ولافتات لا أثر لها فى حياة الناس ، ولا تَمَسُّها إلَّا بمقدار ما يشير إلى موقع الدولة فى خارطة العالم الإسلامى ويشعر بأن دينها الرسمى هو الإسلام ، أما تنزيل الإسلام وتطبيقه فى حياة الناس فهو أمرٌ فيه كثير نظر ، وربما كان فيه شيء من الخطر - فى نظر أولئك الحكام - ولكن على ماذا يا ترى الخطر؟ أعلى المنصب والجاه ؟ أم على السلطة ؟ وهى وإنْ طالت ومهما طالت فإلى أمدٍ محدود ، وكل فعل فيه مرصود ، لدى الحى الذى لا يموت ، والآيات الآفاقية والأنفسية تؤكد ذلك ، وما على أولئك الحكام إلَّا أن يراجعوها ، لتعينهم على تغيير ما بأنفسهم من جهل أو عداوة للإسلام ودعاة الإسلام ، فيكفُّوا عن تحنيط الإسلام فى دوائر ضيقةٍ ، وحصر الدُّعاة فى زوايا محدَّدة ، مراعاة لخطط بطانة السُّوء ، أو استجابةً للموازنات التى يتشدَّق بها كثير من أولئك الحكام فى أخريات الزمان مستغلين ما قد يوجد بين الدعاة من خلافات فى مسائل جزئية ، ومن تباين فى النظرة المذهبية ، ومن ضعف نفسى - أحياناً - يقود بعض الدعاة إلى العراك والتطاحن على مآرب لا تستحق بذل أدنى جهد ، فضلاً عن إقامة معركة .

فليتق الله عباد الله ، حكاماً ومحكومين ، دعاةً ومدعوين ، ولتزل الجفوة والفجوة بين الحكام والدُّعاة لتتآزر جهودهم من أجل الدعوة إلى الله فى شتى المجالات ،

وليقرأوا التاريخ قراءةً واعيةً مستبصرة ؛ ليتذكّروا أنَّ الأمَّة المسلمة قد مرت بمحن وشدائد فى دورات التاريخ المختلفة ، اتَّخذت صوراً وأشكالاً ، لكنها لم تقض على حقيقة الأمَّة الإسلامية ، ولم تمحها من الوجود ، وما ذاك إلاّ لوجود القرآن بينهم ، يرفع معنوياتهم ، ويرأب صدْعهم ، ويجمع شملهم ، ويذكرهم ـ دوماً ـ بضرورة الدعوة إلى الحق والتمسك بالحق ، كما فى قوله تعالى : **﴿وممن خلقنا أمَّةٌ يهدون بالحقِّ وبه يعدلون﴾** [٥] .

وقد قال العلامة ابن كثير فى تفسير هذه الآية : «والمراد في الآية الأمة المحمدية **لحديث «ولا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك»** [٦] .

كما يذكر القرآن الكريم بضرورة الجهاد والصبر على الشدائد وبذل كل ما يمتلكون من أجل تحقيق النصر أو الاستشهاد والأجر ، كما فى قوله تعالى : **﴿ولا تهنوا فى ابتغاء القوم إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون وترجون من الله ما لا يرجون وكان الله عليماً حكيماً﴾** [٧] وكما قال ابن كثير فإنَّ قول الله عزّ وجلّ : **﴿وممَّن خلقنا أمة يهدون بالحقِّ وبه يعدلون﴾** يشير إلى أمة محمد ﷺ ، وكلمة أمة تشمل الحكام والمحكومين ، والدعاة والمدعوين ، ومعنى ذلك أن الدعوة إلى الله واجبة على الأفراد والجماعات ،

---

(٥) الأعراف : ١٨١ .

(٦) ابن كثير : مختصر تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٧٠ .

(٧) النساء : ١٠٤ .

ونرى أنها على الحكام أوجب وألزم ، لأن الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن .

والدعوة من جانب الأفراد يسيرة لكنها ذات آثار كبيرة إذا تواصلت وتواثقت ، بحيث يدعو كل مسلم أخاه المسلم إلى ما هو حق وعدل ، وينهاه عن كل ما يرى فيه من سوء ، ويذكره كلَّما نسي أو هفا ، فالمؤمن مرآة أخيه ، وبهذا سوف لا تسود المنكرات فى المجتمعات الإسلامية ، وسيتوجه المجتمع كله نحو الخير والعدل ـ بإذن الله تبارك وتعالى ـ طالما شاع بين أفراده الإيمان الحقُّ والتواصي بالحق دون تشدُّد ، ودون جنوحٍ إلى التكفير للمجتمع بأسره ، أو الهجرة عنه طالما لم تتوفرْ فيه الصور والأشكال التى ارتسمت فى مخيلة بعض المفرطين أو المفرِّطين .

وتلك هى السمات الأساسية للأمة المسلمة والتى كانت خير أمة أخرجت للناسِ ، وهى الدعائم التى يجب توفرها لدى كل مسلم ، خاصةً دعامة الإيمان الحق ؛ لأنها ترتفع بالإنسان من العبودية لسوى الله تبارك وتعالى ، فـ (يقيم فى نفسه المساواة مع جميع العباد ، فلا يذل لأحد ، ولا يحنى رأسه لغير الواحد القهار ...)[8]

وقد يتساءل البعض عن الإيمان الحق ، وعن الضابط أو المعيار الذى يعرف به ذلك ، نقول : لا ضابط ولا معيار سوى العمل ، العمل الصالح ، ذلك لأن العمل الصالح هو الثمرة الطبيعية للإيمان الحق ، وثمار هذا الإيمان لا تذوى

---

(٨) سيد قطب ـ فى ظلال القرآن ـ جـ ٦ ص ٣٩٦٧ .

ولا تذبل ولا تحجب طالما كان الإيمان قوياً والقرآن يرفده ويدعمه ، شأن هذه الثمار شأن عطر الورد والزهور الفوّاحة التى لا تستطيع أن تمسك أريجها ، وحينما يحدث أىٌّ نشاز فى أريجها يدعى لها المختصون ليشخِّصوا الداء ويذكروا الدواء ...

وهكذا يجب أن يكون حال كل مؤمن ، حينما يحس بأن عطاءه فى مجال الدعوة إلى الله غير موصول ، أو أن ثمار إيمانه ـ وهى العمل الصالح ـ ضاوية ضامرة ، يراجع خطواته ويحاسب نفسه قبل أن يحاسب ، ثم لا يلبث أن يجد أخاه المؤمن إلى جانبه ، يوصيه بالحق ويوصيه بالصبر على مجاهدة النفس حتى يتمكن من النهوض بالأمانة الكبرى ، وذاك هو الإيمان الحق .

فالإيمان الحق إذن ليس انكماشاً أو سلبية وانكفاء على الذات ، واكتفاء بما يدور فى مكنونات الضمير ، صحيح : الإيمان هو ما وقر فى القلب ، ولكن لا بد من أن تنعكس أصداءُ ذلك الإيمان المستقر فى النفس على السلوك وعلى القول والعمل ، ليصبح عملاً صالحاً وقولاً معروفاً **﴿قولٌ معروفٌ ومغفرةٌ خيرٌ من صدقةٍ يتبعها أذىً﴾**(٩) .

والقول المعروف ، والأمر بالمعروف يشيران إلى الخطة والطريقة التى يجب أن يتَّبعها كلُّ داعٍ إلى الله حتى لا يهدم ما بنى ، أو ينفِّرَ من دعى ، بالفظاظة والقسوة ، أو الهجوم على النفوس البشرية بما يزعجها ..

---

(٩) البقرة : ٢٦٣ .

وأعتقد أن الذين يسلكون مسلك الفظاظة والتنفير ـ فى زماننا هذا ـ معدودون أو قليلون ، وهم على الدعوة والدعاة محسوبون ، ولكن انضمَّت إليهم طائفة من أدعياء المعرفة ومن الطيبين الذين حسبوا أن الآية التى قررت وجود أمة تهدى بالحق وبه تعدل توجب على كل فرد من أفراد أمة محمد ﷺ أن يكون ضليعاً فى أصول الفقه ، خبيراً بالمصالح المرسلة عند المالكية والشافعية ، عليماً بقواعد الاستحسان الذى اعتمده الحنفية ، قادراً على الاستنباط والترجيح ، متمكناً من تفسير القرآن الكريم ، وذاك مطلب عسير ، ودعوى لم يقل بها أحد من المفسرين ، وتكليفٌ للناس بما لا يطيقون ، **﴿لا يكلِّفُ الله نفساً إلَّا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت﴾**[10] بل هو إعراض عن سنَّة الله التى أوجدت التنوع فى كل شىء ليتم التعاون والتآزر الذى يحقق التكامل بغية عمارة الكون ، وإلَّا لفسد دولاب الحياة .

ولنضرب مثلاً لذلك بمجتمع صغير أصرَّ كل فردٍ من أفراده أن يعمل فى مجال الطب : الطب البلدى ، والعلمى ، والدجلى ، تاركين مجالات الزراعة والصناعة والتجارة والتعليم ، فماذا يكون مصير هذا المجتمع ؟

ولا أقصد من هذا الدَّعوة إلى هجر الفقه والدراسات الدينية أو جعل الفقه والمعرفة الدينية وقفاً على مؤسسات رسمية وشبه رسمية أو على شهادات ودرجات علمية لها أسماء

(١٠) البقرة : ٢٨٦ .

أجنبية أو محلية ، ولا يمكن أن يقول هذا عاقل منصف ، لا سيما بعد قول الرسول ﷺ **«من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين»** . ولكن قصدت أن أقول : الفقه نفحة ربانية ونعمة إلهيَّة ، لا يلقاها إلَّا الذين صبروا ، ولا يؤتاها إلَّا ذو حظ عظيم ، وقصدت أن أقول : هناك حدٌّ أدنى من الفقه والمعرفة الدينية لابدَّ لكل فرد من أفراد المسلمين من الالمام به ليكمل إيمانه ، وهناك تفاصيل دقيقة ومسائل عميقة لا يلقاها إلَّا من صبروا على دراسة الفقه الديني وحظوا بنعمة الله فى التفقه ، فلنترك الفتوى واستنباط الأحكام الفقهية لأمثال هؤلاء ، ولتمدهم الأمة أو المجتمع بكل ما يعينهم على أداء تلك المهمة الجليلة على وجه أكمل وبصورة أفضل ، حتى لا تحدث المضاعفات الجانبية ، بل تحدث الكوارث حينما تتعارض الأحكام أو تأتى بصورة مضلِّلة أو مُبَلْبِلَة ، تماماً مثل ما يحدث للمريض حينما يأخذ وصفة طبيب وقد انتهى تاريخ استعمالها ، أو لها مضاعفات جانبية لم يك مُلِمّاً بها أو بالمضاد لها .

وليطمئن الذين لم يحظوا بنعمة التعمق والتفقه فى الدين بأنهم داخلون فى مفهوم الآية التى خصَّت الأمة المحمدية بدعوة الحق والعمل بالحق ، فهم داخلون فى هذا المفهوم إذا تمسكوا بشريعة محمد ﷺ ، لأنَّهم يطبقون الحق ، ويقولون الحق على أنفسهم وعلى غيرهم ، وداخلون فى هذا المفهوم لأنهم يدعون إلى الحق فى حدود امكاناتهم وقدراتهم واستعداداتهم ، وكحدٍ أدنى يتواصون بالحق ويتواصون بالصبر .

ونعتقد أن التواصي بالحق والتواصي بالصبر يندرجان تحت قوله تعالى : **﴿قولٌ معروفٌ ومغفرةٌ خيرٌ من صدقةٍ يتبعها أذى﴾** تنزيلاً لمن يحتاج إلى توجيهٍ دينى وتبصرة فقهيةٍ منزلة السائل المحتاج الذى تجب مراعاة مشاعره وكرامته فى حال اعطائه أو عدم اعطائه ، وكذلك المحتاج للمعرفة الدينية أو التبصرة الفقهية ، أو النصيحة والتوجيه عن طريق التواصي بالحق والتواصي بالصبر.

وقد ذهب بعض المفسرين إلى أن التواصي بالحق أمر ضرورى ضرورة تصل به إلى مرحلة الوجوب أحياناً ، وقد ذكروا لتلك الضرورة مبررات عديدة ، حيث قال أحدهم :

«النهوض بالحق عسير ، والمعوقات عن الحق كثيرة : هوى النفس ، ومنطق المصلحة العامة ، وتصورات البيئة ، وطغيان الطغاة ، وظلم الظلمة ، وجور الجائرين ، والتواصي تذكير وتشجيع ، واشعار بالقربى فى الهدف والغاية ، والأخوة فى العبء والأمانة ، فهو مضاعفة لمجموعة الاتجاهات الفردية ؛ إذ تتفاعل معاً فتتضاعف باحساس كل حارس للحق أنَّ معه غيره يوصيه ويشجعه ويقف معه ، ويحبه ولا يخذله ، وهذا الدين وهو الحق لا يقوم إلَّا فى حراسة جماعة متعاونة متواصية متكاملة متضامنة على هذا المثال ، والتواصي بالصبر كذلك ضرورة ، فالقيام على الإيمان والعمل الصالح وحراسة الحق والعدل من أعسر ما يواجه الفرد والجماعة ، لا بد من الصبر ، لا بد من الصبر على جهاد النفس وجهاد الغير ، والصبر على الأذى

والمشقة ، والصبر على تبجح الباطل وتنفج الشر ، والصبر على طول الطريق وبطء المراحل وانطماس المعالم وبعد النهاية ..»[11]

فمدار الأمر إذن هو الإيمان الحق والتواصي بالحق ، عبر الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.

---

(١١) سيد قطب ـ فى ظلال القرآن ـ م ٦ ص ٣٩٦٧ ـ ٣٩٦٨ .

الفصـــــل الرابـــع

منهج القرآن الكريم فى الدعوة إلى الله

١ ـ القرآن كُلُّه منهج دعوةٍ ودستور حياة .
٢ ـ مقوِّماتِ منهج الدَّعوة فى القرآن الكريم :
أ) دعوةٌ بالحكمة والموعظة الحسنة .
ب) تربية وإرساءٌ لقواعد الحضارة الأخلاقية .
ج) تركيزٌ على القدوة والتطبيق العملى .
د) دفع الغبن ورفع العوز بضمانات مُثلى :
١ ـ أخذ الحكم من مصدره التشريعى الصحيح .
٢ ـ توخِّى العدل دون تحيز أو مجاملة .
٣ ـ الحرص على العدل فى الأقوال وتجنب النجوى .
٤ ـ إشاعة مبدأ تكافل الأمَّة وربطه بالإيمان .
٥ ـ لا تجريم بأثرٍ رجعى ولا تزرُ وازرةٌ وزر أخرى .
هـ) دعوة إلَى الأخوة الإيمانية والوحدة الإنسانيَّة .

١ ـ القرآن الكريم كله منهج دعوة ودستور حياة :

القرآن الكريم يمثل منهجاً متكاملاً للدعوة إلى الله فى كل زمان ومكان ، كما هو دستور حياة المسلمين فى كل زمان ومكان ، ولن يستفيد الداعية من منهج القرآن الكريم فى الدعوة إلى الله إلَّا إذا تدبر معانى القرآن الكريم ، وامتزجت تلك المعانى بروحه ومشاعره ، ثم انعكست أصداء ذلك الامتزاج فى سلوكه وجوانب حياته اليومية .

ولا شكَّ فى أنَّ الرَّعيل الأول من حملة مشاعل الدعوة الإسلامية قد فهموا القرآن الكريم ذلك الفهم ، ورافق فهمهم عقيدةٌ وعمل ، عقيدةٌ راسخة متأصلة فجَّرت لديهم كل الطاقات ، فأظهرت كل الكفاءات والقدرات ، وبذاك تمكنوا من عمارة الكون بغية إسعاد الكائن الحى فى حدود نعم الله الميسرة وقتذاك ، توطئةً للسعادة فى الحياة الدائمة الباقية ، والتى وصفت فى القرآن الكريم بأنها خير وأبقى : ﴿**بل تؤثرون الحياة الدنيا والآخرة خيرٌ وأبقى**﴾ .

لم يؤثر الرعيل الأول الحياة الدنيا ولم يهملها ، لكنَّه أولاها من الرعاية والاهتمام بمقدار ما يعين على عمارة الكون بعيداً عن مستنقع الدمار الأخلاقى والتطاحن البشرى ، وبعيداً عن القهر والتسلط على أى فرد من عباد الله ـ بغض النظر عن جنسه ولونه أو معتقده وفكره ـ طالما لم يعتد ولم يتسلط على غيره ، ومن ثمَّ كانت لهم السيادة والريادة فى شتى المجالات .

ولكى يعد المسلمون اليوم أنفسهم لتحمُّل تبعات وواجبات الدعوة الإسلامية على هذا النمط الرفيع من السلوك والنهج القويم فى الدعوة ، عليهم أن يترسَّموا منهج القرآن الكريم فى الدعوة ، بل فى ترسيخ العقيدة وتمكينها من النفوس ، وعندئذٍ يجدون أنفسهم فى حاجة إلى أن يغيروا ما بأنفسهم أولاً ـ كما ذكرنا فى مبحث سابق ـ ثم يسخروا كلَّ الامكانات المتاحة والطاقات المادية والمعنوية ، والتى ستعينهم على التأثير فى النفوس البشرية ، فيتأثر الناس بسلوكهم ، ثم تأتى أقوالهم وأفكارهم معززةً وموضحة مقاصد الأعمال ومبينةً علل الأحكام .

وقد قلنا فى مبحث سابق إنَّ الدعوة إلى الله ليست وقفاً على فئة

أو طائفة بعينها ، ولكنها حقٌ لازمٌ وواجبٌ على كل من أراد الله به خيراً وفقهه فى الدين ، وأجرها ثابتٌ لكل من لم يوفقه الله على التفقه فى الدين ، ولكنه كان يدعو فى حدود الذات أو فى دائرة التواصى بالحق والتواصى بالصبر .

ولا نود أن نعيد ما قررناه قبلاً ، ولكن أعدنا الفكرة فقط لننطلق منها إلى القول بأننا نرى أن الكثيرين من الذين تصدَّوا للعمل فى مجال الدعوة إلى الله كتابةً وخطابةً وتمثيلاً عبر التلفاز أو شاشة «السينما» فى حاجة ماسة إلى أن نقول لهم ـ على سبيل التواصى بالحق والتواصى بالصبر على تقبل النصح وتحمل النقد والتوجيه ـ نقول لهم : لكى تقوموا بما تمليه عليكم ضمائركم ووجداناتكم الإيمانية من تبليغ للدعوة الإسلامية على وجه أكمل وبصورة أفضل ، لا بد لكم من أن تسعوا جاهدين فى طلب العلم متذكرين موقف موسى مع الخضر ؛ لتستكملوا حصيلتكم المعرفيَّة فى التفقه فى الدين ، وما يستلزمه من وسائل تعبيرية ومعارف كونية ، وكحد أدنى نقترح ما يلى :

١ ـ دراسات إسلامية قوامها تأصيل العقيدة وفقه الشريعة إلى جانب تصحيح تلاوة القرآن الكريم وحفظ سور منه ومن الحديث النبوى .

٢ ـ تحصيل ثقافة لغوية وأدبية عامة تعين الداعية على سلامة التعبير وتبصِّره بمقتضيات الأحوال وما يناسبها من أساليب ..

٣ ـ دراسة السيرة النبوية وتاريخ الصحابة رضوان الله عليهم ، للاستفادة من دروس التاريخ وعبره ، إلى جانب دراسة السنة المطهرة .

٤ ـ المامٌ عامٌ بثقافات ومعارف العصر مما يجعل الداعية ذا بصرٍ

ودرايةٍ عندما يعالج القضايا المختلفة ليبدى فيها الرأى من المنظور الإسلامى .

٥ ـ تدريب الداعية نفسه وتعويدها على التزام جانب التجرد والموضوعية فى كل ما يتناوله ، لأن الداعية بمثابة النور الذى يضىء الطريق ليهدى الحيارى سواء السبيل كيفما كانت انتماءاتهم العرقية ، أو الاقليمية ، أو العقدية ؛ إذْ أنَّ الداعى إلى الحق والفضيلة إنَّما ينفتح على كل الناس ليرشد كل ضال سواء السبيل دون تهجُّم على النفوس البشرية بما يصدُّها وينفرها .

٦ ـ تدريب الداعلية نفسه وتعويدها على الصُّمود مع الحق ولو أعرض عنه كلٌّ من يخالطهم ، وله فى رسول الله ﷺ أسوةٌ حسنة ، حيث صمد فى دعوته صمود الجبال الراسيات رغم ظلم ذوى القربى وطغيان الطغاة وتآزر قوى الشر والالحاد ، وقال : «**والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أدع هذا الأمر ما تركته**» وقال : «**اللهم إن لم يكن بك غضب على فلا أبالى**» .

بهذا النهج سوف لا يكون بيننا من يشوِّهون صورة الإسلام ـ دون أن يقصدوا ـ أولئك الذين يظنون أن الإسلام بعيدٌ عن معارف العصر ، ومتعارض مع حقائق الكون المتجدِّد ، أو يفصلون بين الإسلام والدولة ، أو الاسلام والعلم ، أو الإسلام والحياة الاجتماعية للإنسان المسلم .

فعندما تصحَّح التصورات ويستقيم الفهم يصبح كلٌّ عمل يقوم به المسلم عبادةً طالما كان يقصد به وجه الله ، «**وتميط الأذى عن الطريق صدقةٌ**» .

لابد للدعاة جميعاً من أن يترسموا منهج القرآن الكريم لتصفو أرواحهم وتطيب نفوسهم ، وتتسع صدورهم ، **فلا** ينفرون الناس من الأخذ بأسباب التطور والتقدم بغية عمارة الكون بعيداً عن مستنقع الدّمار الأخلاق ، فليس من الإسلام بل ليس من الحكمة فى شىء أن يدعو أحد إلى الأعراض عن الدنيا ، وينفر الناس من الغنى وجمع المال إذا توفرت الوسائل المشروعة ، واقتنع الغنى أو الساعى إلى الكسب وجمع المال بأنه مستخلفٌ عليها ، وأنَّه لا يلهيه التكاثر حتى يزور المقابر ، فلا يتكبر ولا يستعلى بماله ، ذاكراً قول الرسول ﷺ : «**يقول ابن آدم مالى ، مالى ، وهل لك من مالك إلَّا ما أكلت فأفنيت ، ولبست فأبليت ، وتصدقت فأبقيت**»[1] وهذا الإبقاء الذى أشار إليه الرسول ﷺ نجده داخلاً ضمن قوله تعالى : ﴿**المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خيرٌ عند ربك ثواباً وخير أملاً**﴾[2] .

فالمال إذن يمكن أن يكون وسيلة معينةً على تحقيق بعض من الباقيات الصالحات وتوفير جزءٍ من الزاد الذى أشار إليه الشاعر بقوله :

إذا أنت لم ترحل بزادٍ من التُّقى
ولاقيت بعد الموت من قد تزوَّدا
ندمت على ألَّا تكون كمثله
فترصد للأمر الذى كان أرصدا

﴿**وتزودوا فإن خير الزَّاد التقوى**﴾[3] .

---

(١) الترمذى فى جامعة ـ رقم ٢٣٤٢ .
(٢) الكهف : ٤٦ . (٣) البقرة : ١٩٧ .

٢ ـ مقوِّمات منهج الدعوة إلى الله فى القرآن :

أ) دعوةٌ بالحكمة والموعظة الحسنة :

من أبرز مقومات منهج الدعوة إلى الله فى القرآن الكريم الحكمة والموعظة الحسنة ، يطالعنا ذلك أول ما يطالعنا فى توجيه الله لنبيه الكريم بقوله : ﴿**ادْعُ إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن**﴾[٤] ويطالعنا ذلك أيضاً من خلال الأمر الموجَّه إلى بنى إسرائيل كى يحسنوا إلى الوالدين والأقارب واليتامى الذى مات آباؤهم وهم صغارٌ ، والمساكين الذين عجزوا عن الكسب ، ثم يلزمهم بعد ذلك بأن يقولوا للناس ـ كافة الناس ـ حُسْنا ، أى الكلام الطيب الذى يؤلِّف القلوب ولا يجرح المشاعر ، وذلك فى قوله تعالى : ﴿**وإذ أخذنا ميثاق بنى إسرائيل لا تعبدون إلَّا الله وبالوالدين إحساناً وذى القربى واليتامى والمساكين وقولوا للنَّاس حُسناً وأقيموا الصَّلاة وآتوا الزكاة ثمَّ توليتم إلَّا قليلاً**﴾ .[٥]

فقد قال : «قولوا للنَّاس» ولم يقل : قولوا لإخوانكم ، أو قولوا لبنى جلدتكم ، لماذا يا ترى ؟ ليدلَّ على أنَّ الأمر بالإحسان عامٌّ جميع الناس ، المؤمن منهم والكافر ، والبر والفاجر ، وفى هذا ما فيه من حض على مكارم الأخلاق بلين الكلام وبسط الوجه والأدب الجميل ، ومن ثم كان قول بعض الشعراء :

بنىَّ إنَّ البـرَّ شىءٌ هيِّن
وجـهٌ طليق ولســـان ليِّن

وكان قول الرسول ﷺ : «**لم يبعثنى الله معنِّفاً ولكن بعثنى معلِّماً وميسِّراً**» .

---

(٤) النحل : ١٢٥ .
(٥) البقرة : ٨٣ .

وما ذاك إلّا لأن الحكمة أو الموعظة الحسنة من شأنها أن تجمع ولا تفرق ، وأن تقوى الأمل واليقين ، بل ترتفع بالمدعوين إلى مستوى الشعور بتبعة المسئولية والتكليف ، ومن شأن الشعور بتبعة المسئولية أن يغير طبائع النَّاس ، وواجب الدَّاعية أن يعمل على إيقاظ مثل هذا الشعور بالحكمة والموعظة الحسنة ، لا على اخماده بالتسجيل على المدعوِّين ضياع الدنيا والآخرة رغم ما يتحلون به من إيمان وخلق ، فهو عندئذ يميت فيهم الشعور بالرَّحمة والأمل فيها ، ويعمِّق فى نفوسهم اليأس ، بل ربَّما جعل قلوبهم فى أكنةٍ ممَّا يدعوهم إليه ، وهذا مناف تماماً لنهج القرآن الكريم الذى أمر الرسول ﷺ أن يدعو بالحكمة والموعظة الحسنة ، ومناف لمنهج القرآن الكريم الذى اختطَّ لكلِّ مسلم كيف يُذكِّر نفسه بالرجاء المستمر فى عفو الله ورحمته ، وبالخوف المستمر من عقابه ، وذلك عندما يؤدى صلوات كل يوم وليلة ، فهو حينما يقول «الرَّحمن الرحيم» يكون فى دائرة الرجاء ، ويحسُّ بحلاوة إيمانه وعذوبة عمله الصالح ، وعندما يقول : ﴿**مالك يوم الدين**﴾ ترتعد فرائضه ويستشعر بالخوف من مالك يوم الدين ، خوف رغبةٍ وحرصٍ على أن يتداركه الله بفضله ورحمته ، لا خوف يأس وقنوط إذ اليأس بغيض مذموم ، بل هو خروج عن دائرة الإيمان ﴿**إنَّه لا ييأس من روح الله إلَّا القوم الكافرون**﴾ [٦] ﴿**قال ومن يقنط من رحمة ربه إلَّا الضَّالون**﴾ [٧] فلنتعلم أسلوب الدعوة إلى الله بالتى هى أحسن من القرآن الكريم عبارةً ومضموناً ، ولنأخذ مثلاً لذلك أسلوب آيات الوصايا العشر فى سورة الأنعام ، حيث رسمت إطاراً لمنهج

---

(٦) يوسف : ٨٧ .

(٧) الحجر : ٥٦ .

الدعوة الإسلامية ، كما جمعت بأسلوبها الآخذ بالقلوب جماع وأصول الفضائل وعمد الحياة الطيِّبة التى تنبع من الفطر السليمة والتى دعا إليها كل رسول من رسل الله السابقين ، ولا نودُّ تفصيل أو بيان تلك الفضائل الآن ، ولكن لننظر فى أسلوب آيات الوصايا العشر حيث يتصدرها طلبان متواليان ، وتوالى الطلب على هذا النحو له دلالته فى البلاغة العربية ، ﴿**قُل تعالوا أتلُ**﴾ وكلمة تعالوا متضمنة الرغبة فى الارتفاع بالمخاطبين إلى مستوى المشاركة فيما هو بصدده ، إلى جانب دلالتها على الرغبة فى التعاون مع المخاطب قبل أن تعبث به الأهواء فتذهب به مناحى الفساد والضلال .

هذا الأُسلوب فى مجمله يشعر بمعانى العطف والمحبة ، والرحمة والمودة ، وهى معانٍ ساميةٌ لا يلقَّاها إلَّا الذين صبروا ولا يؤتاها من الدعاة إلَّا ذُو حظٍّ عظيم ، ومن ثم كان امتنان الله على نبيه الكريم أَن هداه فى الدعوة إلى الله باللِّين والرحمة ، وذلك فى قوله تعالى : ﴿**فبما رحمةٍ من الله لنت لهم ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك**﴾[8] ألفظاظة سوء الخلق وجفاء الطبع ، ومن ثم قال الشاعر :

أخشى فظاظة عمٍّ أو جفاء أخٍ
وكنت أخشى عليها من أذى الكلم

أما غِلَظُ القلب فهو عدمُ الرقَّة والرحمة ، وعدم التأثر لما يدعو إلى التأثر وتنفطر له القلوب الرقيقة ، ومن ثم قال الشاعر :

يُبكى علينا ولا نبكى على أحدٍ
لنحن أغلظ أكباداً من الإبل

وقال أحد المفسرين فى تفسير تلك الآية :

---

(٨) آل عمران : ١٥٩ .

«أى فبسبب رحمة من الله أودعها فى قلبك يا محمد كنت هاشاً ليِّن الجانب مع أصحابك مع أنهم خالفوا أمرك وعصوك ، ولو كنت جافى الطبع قاسى القلب ، تعاملهم بالغلظة والجفاء لتفرقوا عنك ونفروا منك ، فتجاوز عمَّا نالك من أذاهم يا محمد ، وأطلب لهم من الله المغفرة ، وشاورهم فى جميع أمورك ليقتدى بك النَّاسُ ، قال الحسن «ماشاور قوم قطُّ إلَّا هدوا لارشد أمورهم ، وكان عليه الصلاة والسلام كثير المشاورة لأصحابه»[9] وقد التزم الرسول ﷺ بذلك المنهج الربانى فغدا كلُّ موقف من مواقفه ، بل كل جانب من جوانب حياته معجزةً من أجلٍّ وأعظم المعجزات ، نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر ما يلى :

١ ـ اطمئنان قريشٍ إليه فى أموالها وذخائرها على الرغم مما بينها وبينه من خلاف عقدى ، وما ذاك إلَّا لما فى صدق الرسول ﷺ وأمانته من معجزات باهرات .

٢ ـ عفوه عن وحشى قاتل حمزة لما أسلم ، إلَّا أن طبيعة البشرية قد غلبته ، ومع ذلك لم يخرج عن المنهج القويم ، ولم يلحق الأذى بمن التزم الصراط المستقيم ، فما كان منه إلَّا أن قال لوحشى لا تجعلنى أراك ، فكان يتوارى عن عينيه .. فكم من الدعاة اليوم يستطيعون كظم غيظهم ، وتحمُّل الأذى فى سبيل رضوان الله ؟

هذا وقد كان الجاهليون يعتبرون مثل هذا التصرف ضيماً وإهانةً ويقولون :

ولا يقيم على ضيمٍ يراد به
إلَّا الاذلان عيرُ الحىِّ والوتد

(٩) محمد على الصابونى ـ صفوة التفاسير جـ ١ ص ٢٤٠ .

أما الرسول ﷺ فقد عفا وقال : لا تدعني أراك وكان تصرفه تصرُّف الهداية الإلهية لرسول العناية الالهية .

٣ ـ عفوه عن هند امرأة أبي سفيان التي بلغ من حقدها على محمد ﷺ ، ومن دعوته مبلغاً حملها على أن تفعل ما لم ولن يفعله أحد من البشر ، ولا الذئب أو النمر ، حيث شقَّت صدر حمزة عمِّ النبي ﷺ وأخرجت كبده فأكلته ، ومع ذلك عفا عنها النبي ﷺ ، وقبل اسلامها ، وذلك عملاً بتوجيهات الله له في كيفية تبليغ الرسالة وأداء الأمانة ، ومسارعةً إلى مغفرة الله ورضوانه وقبوله ، قال تعالى : ﴿**وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدَّت للمتقين ، الذين ينفقون في السراء والضَّراء والكاظمين الغيظ والعافين عن النَّاس والله يحبُّ المحسنين**﴾[١٠] .

٤ ـ أهل مكة الذين عادوا النبيَّ ﷺ ، وأصحابه ودعوته ، وجرعوهم الصَّعاب والعلقم ، ماذا فعل بهم رسول الله ﷺ حينما تمكن منهم ؟ هل عاداهم ؟ هل دبَّر لهم المكايد ؟ هل أضمر لهم الحقد ؟ كلا ثم كلا ، ولكن قال لهم اذهبوا فأنتم الطلقاء ، فمن من حكَّام هذا الزَّمان يسلك هذا المسلك تجاه معارضيه ولو كانوا على حق ؟ نعتقد أن تلك درجة سامية لم يصلها إلَّا القليلون جداً من حكام المسلمين بعد الخلافة الراشدة بل أن أكثرهم ـ كما يقال ـ لا يعرف شيئاً سوى القمع ، الكبت ، خلع الأظافر ، نتف اللِّحى ، هتك عِرْض المُعارِضِ أمام ناظريه ، وقديماً قيل :

---

(١٠) آل عمـــران : ١٣٣ ـ ١٣٤ .

واحتمال الأذى ورؤية جانيه

غذاءٌ تضـــوى به الأجسام

وتلك تصرُّفاتٌ ومواقف لا تقبل من حكامٍ يمتُّون إلى الإسلام بصلة .

وإذا كانت تلك المواقف مستغربةً مستهجنةً فعجبٌ منها اعراض أولئك الحكام عن الإسلام وترديدهم القول بأنه قاسٍ ولا يتناسب مع حضارة العصر ! !

وتلك فرية ما فيها مرية ، خاصَّة عندما تصدر من الذين لا يحلوا لهم شيءٌ مثل الانتقام والتنكيل بالعقوبة . ومن ثمَّ نقول لهؤلاء لتعلموا أن الهدف من العقوبة فى الإسلام هو الردع والزجر وليس الانتقام والتنكيل بالناس .

وفى الردع والزجر ما فيهما من صون للدماء وحفظ لحياة الناس ، كل الناس الأبرياء المتقين أو الأشرار المجرمين ، حينما يرتدعوا وينزجروا عن ارتكاب الجرائم ..

ب) تربية وارساءٌ لقواعد الحضارة الأخلاقية :

يُعنى القرآن الكريم بتربية من يدعوهم إلى الله تربية متكاملة متجانسة عبر جميع الموضوعات التى تناولها القرآن الكريم ؛ إذ أنَّه صبغ جميع تلك الموضوعات بصبغة الهدى والارشاد ، وجعلها جميعاً ـ رغم تباينها واختلافها ـ تتماسك وتشد بعضها بعضا ، من أجل تحقيق تلك الغاية والهدف التربوى ..

ومن ثم يمكن لكل قارىء للقرآن الكريم قراءة تدبرٍ أن يدرك ويستشعر استشعاراً عميقاً معنى العبودية لله تعالى ﴿**وما خلقت الجنَّ والإنس إلَّا ليعبدون**﴾ . ولهذا كان فى مقدمة التوجيهات التربوية

للقرآن الكريم توجيه العباد إلى العناية بالقلب والروح ، والعقل والجسد ، ليرتفع بهم إلى الأفق الأعلى ، أفق الإنسان الكامل كمالاً بشرياً ، حسب التصور القرآنى لذلك الكمال البشرى ، وبهذا أصبح كل فرد من أفراد المسلمين الأوائل طاقةً كونية فعَّالة ، وقوةً عزيزةً لا تذلُّ ولا تضعف ولا تهن ، بل تعمل دوماً من أجل إعلاء كلمة الله ، تجاهد فى سبيل الله بالنفس والمال .

وقد سلك القرآن الكريم فى هذه التربية المتكاملة أسلوب الانذار والتبشير المتمثل فى الترغيب فى نعيم الآخرة الدائم الصافى ، ثم الترهيب من الكفر والافساد فى الأرض والطغيان على عباد الله :

﴿ولا تطغوا فيه فيحلَّ عليكم غضبى ومن يحلل عليه غضبى فقد هوى﴾[11] .

ومعلوم أن أيّة عمليةٍ تربوية لا بد فيها من التدرج والتنويع الذى يدفع السأم والملل ، وأنك لتجد هذا واضحاً فى المنهج التربوى للقرآن الكريم ، حيث التنوع فى موضوعاته ، والتنوع فى وسائله فى الدعوة إلى مقاصده ، وحيث التدرج بالناس فى ما يدعوهم إليه ، بل كان نزول القرآن الكريم منجماً تمشيّاً مع مقتضيات الأحوال ، وتجاوباً مع الرسول ﷺ ؛ لتعليمه ـ كل يومٍ تقريباً شيئاً جديداً ، ولارشاده وهديه وتثبيته ، فيزداد اطمئناناً ، ولتربية الصحابة رضوان الله عليهم واصلاح عاداتهم دون مباغتة أو مفاجأة ، إلى جانب تمكينهم من تدبُّر القرآن الكريم فى عمق ، وتنفيذ توجيهاته فى يسر . . .

ومن هنا نقول كان القرآن الكريم منهجاً ودستوراً لحياة الأمة

---

(١١) طه : ٨١ .

المسلمة كلها ، وسيبقى قائداً ودليلاً للإنسانية كلها ، إذا تمسكت به وعملت بتوجيهاته ؛ إذ سيوجهها إلى ما هو خير وأبقى ، ويبصرها بالحضارة الأخلاقية الحقة ، حضارة توافق الفطر البشرية وتتواءم مع النفوس الإنسانية ، ولهذا قال الرسول ﷺ : «**إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق**» أى أنّه جاء ليتمم الصَّرح الإلهى الذى بناه الرُّسل والأنبياء السابقون له على مرِّ العصور وحسب توجيه الله وهدايته لهم .

والذين يتساءلون عن الحضارة التى بناها ويبنيها القرآن الكريم عند التمسك بتوجيهاته نقول لهم : أمعنوا النظر جيداً فى قوله تعالى : **﴿قد جاء كم من الله نورٌ وكتابٌ مبين.يهدى به الله من اتَّبع رضوانه سبل السَّلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراطٍ مستقيم﴾**[١٢] .

وفى قوله تعالى : **﴿إنَّ هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصَّالحات أن لهم أجراً كبيراً﴾** .

بتلك الهداية الموصوفة بأنها أقوم وأعدل تمكن القرآن الكريم من ارساء قواعد الحضارة الحقة ، حيث قنَّن للذوق والأدب فى العلاقات الاجتماعية ، وفى المظهر والتحشُّم ، ثم فى الآداب العامة وغيرها ، إلى جانب الأصول التى وضعها العليم الخبير لتزكية النفوس وتطهيرها بالعبادات ، وتنمية الأموال وتطهيرها بالصدقات والزكوات ، وبالعمل المشروع فى كل مناحى الحياة .

والقرآن الكريم لم يشغل المسلمين فى كلٍّ ذلك بموادَّ وتفريعات أو مذكرات تفسيرية ، ولم يكل أمر مراقبة تنفيذ العبد للعبادات أو عدم تنفيذه إلى رجال الشرطة والأمن أو غيرهم ، ولكنَّه ترك الأمر

---

(١٢) المائدة : ١٥ ـ ١٦ .

للعبد نفسه ، بعد أن وضع له أسس تنمية الضمير المراقب ، وتقوية النفس اللوامة ، والتي تحضُّ صاحبها على أن يعبد الله كأنه يراه ، وهذا هو أعظم ثمرةٍ من ثمرات الإيمان ، هو الإحسان الذى عرفه الرسول ﷺ بقوله : «**الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنَّه يراك**» .

وقد كان هذا الاحسان بمثابة اللبنة الأولى فى إرساء قواعد الحضارة الأخلاقية ، لأنه يستلزم مراقبة دائمة من المسلم فى كل عمل وفى كل تصرف من تصرفاته ؛ إذ يشعر بأن عين الله ترقبه ، ويحسَّ بأن كل خاطرة وكل نية سيكشفها الله للناس ، وقد ينزل بشأنها آية ، فيحمل نزول الآية المسلم إلى المسارعة والاقلاع عن تلك الخاطرة .

ومن ثم كان كل مسلم فى عهد الرسول ﷺ يحسُّ بهذه المراقبة الذاتية ، ويتلهَّف إلى توجيهات السماء حينما تأتى وفى أى أمر من الأمور ، لا سيما إذا كان الأمر متعلقاً به أو بمسلكه ، فتدفعه نفسه اللوامة إلى الاصغاء ثم الاقلاع الفورى ، إذا كانت الآية تدعو إلى الاقلاع عن عمل ما ، أو التنفيذ الفورى إذا كانت الآية تدعو إلى تنفيذ عمل ما .

ومن ذلك ما رواه الامام الترمذى عن معقل بن يسار رضى الله عنه أنه زوج أُخْتَهُ رجلاً من المسلمين على عهد رسول الله ﷺ ، فكانت عنده ما كانت ، ثم طلقها تطليقة لم يراجعها حتى انقضت عدَّتها ، فهويها وهويته ، ثم خطبها مع الخطَّاب فقال له : أكرمتك بها فطلقتها ، والله لا ترجع إليك أبداً ، قال فعلم سبحانه وتعالى حاجته إليها وحاجتها إلى بعلها فأنزل قوله : ﴿**وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فلا تعضلوهن أن ينكحن أزواجهنَّ إذا تراضوا بينهم**

بالمعروف ذلك يوعظ به من كان منكم يؤمن بالله واليوم الآخر ذلكم أزكى لكم وأطهر والله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾(١٣).

فما أن سمع معقل هذه الآية إلّا وقال : السمع والطاعة لربنا ، فدعا طليق أخته ، فقال له أزوجك وأكرمك .

وهذا يعنى أن القرآن الكريم كان المرشد والموجه ، وكان هو المنهج اليومى الذى يتلقاه المسلمون للعمل به فى جميع جوانب حياتهم ، الدينية والدنيوية ، وقد كان منهجاً متكاملاً فريداً ، يتضح تكامله من خلال القواعد العامة والأُطر الكبيرة التى وضعها لتحرك المسلمين فى شتى المجالات .

نأخذ مثالاً لذلك قصة معقل السابقة ، حيث لم تصرِّح الآية باسمه ، ولم تشر إليه من قريب أو بعيد ، لماذا يا ترى ؟ لأنَّ الآية أرادت أن تحل المعضلة الحالية ، وفى ذات الوقت تضع إطاراً عاماً للمسلمين ، لذا جاء التعميم فى كثير من ألفاظ الآية وعباراتها **﴿إذا طلقتم النساء﴾ ﴿ذلك يوعظ به من كان يؤمن بالله﴾ ﴿فمن﴾** لا تعنى شخصاً بعينه وهكذا ...

هذا الأسلوب القرآنى فى علاج المشكلات ورسم الخطط المستقبلية لتفاديها وتداركها دون تشهير بأحد أو إحراج لأحد ، هو المنهج التربوى السليم .

فمن يرجع إلى قصة حاطب بن أبى بلتعة فى جميع المصادر التى عنيت بذكرها خاصةً كتب التفسير يجدها صورةً ناطقة ومعبرةً عن لحظة من لحظات الضعف البشرى ، صورةٌ تهز فكر كلٍّ من يعرف شيئاً عن ذلك الصحابى الجليل ، تهزه هزاً عنيفاً ، وتجعله يرجع البصر كرتين فيرتدَّ إليه بصره كليلاً ، كما حدث لابن الخطاب الذى

---

(١٣) البقرة : ٢٣٢ .

ثار بادىء الأمر ، وقال للرسول ﷺ : دعنى أضرب عنقه ، فإنه قد خان الله ورسوله والمؤمنين ، ولكن سرعان ما ذرفت عينا عمر بالدموع عندما سمع كلمات الرسول المضيئة ، والتى تدل على عدم تعجلٍ فى الحكم ، وتشير إلى سعة الصَّدر وقوة العطف على لحظة الضعف البشرى الطارئة على نفس صاحبهم الذى أبلى بلاءً حسناً فى سبيل الله ، إنَّ النفس لأمارة بالسوء .

نعم طلب النبى ﷺ من أصحابه أن يكفوا عن حاطب قائلاً لهم : صدق ولا تقولوا إلَّا خيراً ، ترى لماذا فعل الرسول ﷺ ذلك ؟ فعل ذلك ليضع خطَّة ومنهجاً للمسلمين فى إعانة اخوانهم إقالة عثراتهم ، ولارشاد المسلمين إلى أن الصدق وقول الحق ولو على النفس أمارةٌ وعلامةٌ من علامات التصور الإيمانى الصحيح ، ومن ثمَّ قال أحد المفسرين :

«يقف الإنسان أمام كلمات حاطب وهو فى لحظة ضعفه ولكنَّ تصوره لقدر الله وللأسباب الأرضية هو التصور الإيمانى الصحيح ، ذلك حيث يقول أردت أن تكون لى عند القوم يدٌ يدفع بها الله عن أهلى ومالى ، فالله هو الذى يدفع ، وهذه اليد لا تدفع بنفسها ، إنَّما يدفع الله بها ، ويؤكد هذا التصور فى بقية حديثه وهو يقول : وليس أحد من أصحابك إلَّا له هناك من عشيرته من يدفع الله به عن أهله وولده وماله ، إنَّما العشيرة أداة يدفع الله بها ، إنهم رجال مدرسة الرسول ﷺ ، إنه الإيمان الذى فعل فيهم ذلك جعل منهم هداة ودعاة ، هداة إلى الحق ودعاة إلى الواحد الأحد»(١٤)

إذن العفو والصفح وعدم التسرع فى إصدار الأحكام صوناً للكرامة التى خص الله الإنسان بها إلى جانب إيقاظ الضمير المراقب

---

(١٤) سيد قطب ـ فى ظلال القرآن جـ ٦ ص ٣٩٦٥ .

والنفس اللوامة ، كل تلك الأشياء ما هى إلَّا أسسٌ ودعائم قويَّة ثابتة لبناء الحضارة الأخلاقية التى تتفرَّع عنها جميع الفضائل الأخلاقية الأخرى والتى أشرنا إليها فى ثنايا المبحث السابق .

(ج) تركيزٌ على القدوة والتطبيق العملى :

لم يكتف القرآن الكريم بوضع الأسس والقواعد ثم الأُطر الكبيرة وحسب ، أى لم يتركها حبيسة بين دفتى المصحف ، أو فى أضابير الصحف التى حررها الدارسون لموضوعات القرآن المختلفة ، ولكنه وضع الأسس والقواعد والأطر وجعلها ذوات فاعلية وإيجابية مستمرة عندما ربط بينها وبين الجوانب العملية ربطاً محكماً جاعلاً الرسول ﷺ قدوة المؤمنين فيها ، ﴿**ولقد كان لكم فى رسول الله أسوةٌ حسنةٌ**﴾ [15] كما أكد الرسول ﷺ وعمَّق هذا الجانب العملى بأعماله وأقواله حيث قال : «**الدِّين المعاملة**» وحيث عرف بخلقه العظيم ومواقفه الكريمة المتعددة الجوانب .

وعندما نتَتَبَّعُ خطوط النور المبين فى القرآن الكريم نجد أضواء ساطعة فى هذا الجانب ؛ إذ تؤكد كثير من الآيات أن المؤمن لا يكون مؤمناً حقاً لمجرد الإيمان العميق بالله وبالحقائق المنزلة ، ولكن يجب عليه أن يترجم ذلك الإيمان إلى واقع عملى يؤكد صحة إيمانه وعمقه وقوته ـ كما ذكرت من قبل ـ بحيث يصبح جهده ووقته وماله وجسده وفكره مسخَّرة من أجل العقيدة التى آمن بها ، ومرتبطة بها أتم ارتباط ، وهذا يعنى أن تكون حياته كلُّها عبادةً لله تبارك وتعالى ، لا استثناء فى ذلك أى أنَّ هذه العبادة تشمل : البيع والشراء ، والعلم والتعليم ، والسياسة والجهاد ، وذلك بالتزام شرع الله فى كل تلك الأمور ، خوفاً من عقابه ورغبة فى ثوابه .

---

(١٥) الممتحنة : ٦ .

قال تعالى : ﴿**إنَّما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثمَّ لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله أولئك هم الصَّادقون**﴾ (١٦) ﴿**يا أيُّها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم وافعلوا الخير لعلَّكم تفلحون**﴾ (١٧) .

﴿**إنَّ الذين آمنوا وعملوا الصَّالحات وأقاموا الصَّلاة وآتوا الزَّكاة لهم أجرهم عند ربِّهم ولا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون**﴾ (١٨) .

فهذه الآيات وغيرها تقرن العمل بالإيمان ، بل تجعله ثمرةَ الإيمان ، ولهذا يمكن أن نقول : «إن كلمة مؤمن عندما تطلق في القرآن الكريم إنما تكون متضمنةً هذا الجانب العملى ، ولا يمكن تصورها خلواً منه ، إذْ لا قيمة تذكر للاعتقاد أو التصديق القلبي غير المصحوب بالعمل ، فالقيمة الكبرى في العمل وفق الاعتقاد» .

﴿**ولكلٍّ درجاتٌ مما عملوا وليوفِّيهم أعمالهم وهم لا يظلمون**﴾ (١٩) .

فلا فلاح ولا سعادة فى الدنيا والآخرة ـ على حد سواء ـ إلَّا بالعمل ، يرشد إلى هذا ويؤكده قول الله عزّ وجلّ : ﴿**فمن يعمل مثقال ذرةٍ خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرَّةٍ شراً يره ...**﴾ ويشير إلى هذا المعنى قول الشاعر :

تريدين إدراك المعالى رخيصةً
ولابدّ دون الشهد من إبرِ النحل

فربط العقيدة بالعمل يكشف عن المشقة التى تصادف الدعوة والدعاة ، سواءٌ أكان ذلك فى الجانب النظرى التصديقى ، أو الجانب العملى التطبيقى ، ومن ثمَّ كان قول الله عزّ وجلّ لنبيه الكريم

---

(١٦) الحجرات : ١٥ .
(١٧) الحج : ٧٧ .
(١٨) البقرة : ٢٧٧ .
(١٩) الأحقاف : ١٩ .

﴿سنلق عليك قولاً ثقيلاً﴾[20] وقال **﴿وإن تطع أكثر من ف الأرض يضلُّوك عن سبيل الله﴾**[21].

وقد وُفِّق الرَّسول ﷺ فى تبليغ الرسالة وأداء الأمانة بصورة مثلى ، ومن ثمَّ كان قدوةً فى أقواله وأعماله وتقريراته .

القدوة العملية لها الأثر فى النفوس ، خاصة عندما يراد لتلك النفوس أن تقلع عن التشبُّث بعاداتٍ رسخت وتأصلت ويريد المشرِّع إزالتها أو إقلاع النَّاس عنها ؛ ذلك لأن التشريع وحده سوف لا يكون له قوة الدَّفْع والحفز مثلما يكون له فى حال تعانقه مع القدوة العملية .

فالرسول ﷺ كان يقول لأتباعه «**صلوا كما رأيتمونى أصلى** ، لم يقل صلوا وهو غافل عن الصلاة باجتماع أو لقاء ، ـ حاشاه ـ ، ولم يقل اذهبوا وقاتلوا وانى ها هنا قاعد أرقبكم من على البعد وأتوقع نصركم ونسفكم للعدو ، وحاشاه أن يكون من القاعدين ـ ، ولكنَّه كان يتقدمهم فى كثير من مواطن الجهاد والقتال ليضع الخطة والمنهج ، ويرسم القدوة العملية ، وهو لم يفعل ما فعله إلَّا بتوجيهٍ من الله تبارك وتعالى ، ولهذا قالت ـ عنه أمُّ المؤمنين عائشة رضى الله عنها : «كان خلقه القرآن» .

ولاهتمام القرآن الكريم بالقدوة والتطبيق العملى سلك مسلكاً عملياً فى الأجوبة على جميع الأسئلة التى وجهت إلى رسول الله ﷺ ، حيث ركز على وضع المبادىء التى توجِّه المسلمين نحو الأهداف والغايات العملية وتصرفهم عن العلل والأسباب التى كثيراً ما تقل درجة أهميتها ، وهذا يتفق مع الهدف والغاية من ارسال

---

(٢٠) المزمل : ٥ .

(٢١) الأنعام : ١١٦ .

الرسل ، وهى بيان الأحكام لأفعال المكلفين من عباد الله بعد تأسيس العقيدة وتأصيلها .

نضرب أمثلة لتلك الأسئلة والأجوبة بالآيات التالية :

﴿وإذا سألك عبادى عنَّى فإنِّى قريبٌ أجيب دعوة الدَّاع إذا دعان فليستجبوا لى وليؤمنوا بى لعلَّهم يرشدون﴾ (٢٢) .

﴿يسألونك عن الأهلَّة ، قل هى مواقيت للنَّاس والحجِّ وليس البرُّ بأن تأتوا البيوت من ظهورها ولكنَّ البرَّ من اتَّقى ، وأتوا البيوت من أبوابها ، واتَّقوا الله لعلَّكم تفلحون﴾ (٢٣) .

﴿يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثمٌ كبيرٌ ومنافع للنَّاس وإثمهما أكبر من نفعهما﴾ (٢٤) .

﴿ويسألونك عن المحيض قل هو أذىً فاعتزلوا النساء فى المحيض ولا تقربوهن حتَّى يطهرن فإذا تَطَهَّرْن فأتوهنَّ من حيث أمركم الله﴾ (٢٥) .

﴿ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربِّى نسفاً ، فيذرها قاعاً صفصفاً ، لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً﴾ (٢٦) .

السؤال هو طلب العلم والمعرفة ، معرفة إحاطةٍ وشمول ، أو معرفة المام وأخذ بطرقٍ من حقائق المسئول عنه ، والواضح أن كلَّ تلك الأجوبة لم تحقِّق الاحاطة والشُّمول فى المعرفة بالنسبة للسائلين ، بل إن كل تلك الأجوبة لم تتعرَّض لحقائق الأشياء المسئول عنها ، ولكنَّها تلقَّت المخاطب بغيرما يترقَّب ، وأجابت السائل بغير ما يتطلب ، لحكمةٍ وفائدةٍ ، وهذا ما يسميه البلاغيون

---

(٢٢) البقرة : ١٨٦ .
(٢٣) البقرة : ١٨٩ .
(٢٤) البقرة : ٢١٩ .
(٢٥) البقرة : ٢٢٢ .
(٢٦) طه : ١٠٥ ـ ١٠٧ .

(الأسلوب الحكيم) ؛ إذ ليس من الفائدة أن يقيِّدهم القرآن بحقائق بعينها من الجبال التى سألوا عنها ، ولكن الأنفع لهم أن تترك لعقولهم وأفكارهم حريَّة التفكير فى حقائق الجبال وما فيها من منافع ومضار لهم ، يكتشفونها حيناً بعد حين ، حسب توفيق الله لهم ، كما أن الأنفع والذى ينبغى أن يستقر فى نفوس السائلين بصورة لا تحتمل إرجاء ولا تحتمل تأخيراً ولا يطرأ عليها تبديل أو تغيير مهما ارتقى العقل والفكر ـ الذى ينبغى أن يستقر فى النفوس هو أن لتلك الجبال ربَّاً ، وأنَّه سينسفها يوماً ـ لا محالة ـ ويذرها قاعاً صفصفا ، وذلك تصويراً لعظمة الله جلّ جلاله ، واشعاراً للسائلين بقدرة الله عزّ وجلَّ ، وتأكيداً للقارعة التى بينتها سورة أخرى : ﴿**القارعة ما القارعة وما أدراك ما القارعة ، يوم يكون النَّاس كالفراش المبثوث وتكون الجبال كالعهن المنفوش ، فأما من ثقلت موازينه فهو فى عيشة راضية ، وأمَّا من خفَّت موازينه فأمُّه هاوية**﴾ .

هذه الآيات وتلك تؤكد للإنسان أنَّ القارعة قد أثَّرت فى الجبال القوية العظيمة رغم أنها قوية عظيمة ، فكيف يكون حال الإنسان الضعيف المقصود بالتكليف والحساب يوم يقوم الناس لرب العالمين ويقول لهم أنا المليك ، حيث الحديث القدسى «**يقبض الله تعالى الأرض ويطوى السماء بيمينه ثم يقول : أنا المليك أين ملوك الأرض**» [٢٧] ..

ذاك مثال واحدٌ من الأجوبة التى تشير إلى الجوانب العملية النافعة لهم ، أما السؤال «عن النظريات البحتة التى لا يتعلق بها نفع فى الدنيا ولا ثواب فى الآخرة ، فهذا ليس من شأن المؤمنين العاملين ، فلا ينبغى أن يسأل عن الأرواح بعد مفارقتها للأجساد

---

(٢٧) محمود شلتوت ـ تفسير القرآن الكريم ـ ص ٥٤٧ ـ ٥٤٨ .

أين تكون ؟ وماذا تعمل ؟ ولا ينبغى أن يسأل عن كيفية الميزان ، ولا كيفية الوزن ، ولا عن الوزن ، ولا عن أرض الجنة ، ولا عن سمائها ، وما إلى ذلك مما شغل به المسلمون أنفسهم ، وملأ كثير من علمائهم به كتبهم ، وصرفوا به النَّاس عن معرفة الخير وعمل الخير» (٢٨) .

فلو عنى علماء المسلمين وحكامهم بالجوانب العملية وأصبحوا قدوةً لأتباعهم لتحققت العزَّة للمسلمين بأيسر طريق ، إذْ سيدركون جميعاً وقتذاك أهمية أشياء كثيرة ذات تأثير كبير فى حياتهم وتوجيه مسارها ، أقرب تلك الأشياء إدراك الجوانب العملية من ارتفاع المآذن وارتفاع صوت الأذان بالنداء قبل كل صلاة ، فيتعلم كل مؤمن رفع الصوت فى قول الحق ، ويتعلم كيف يرفض الضَّيم ويرفض الظلم ولا يحنى رأسه لغير الواحد الأحد الفرد الصمد ، ولا يستسلم للضيم والظلم من أعداء الأمة والدَّين ، لكنَّه يدفع الظلم ويغيرُ المنكر بيده إن استطاع ، وإلَّا فبلسانه وقلبه ، ولو على سبيل الترديد والتذكير بقول الله عزّ وجلّ : **﴿ولا تهنوا فى ابتغاء القوم إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون ، وترجون من الله ما لا يرجون وكان الله عليماً حكيماً﴾** (٢٩) ثم الترديد لقول الشاعر الذى احتج على المستعمر الأجنبى قائلاً :

كسَّروا الأقلام هل تكسيرها ... يمنع الأيدى أن تنقش صخرا ؟
قطَّعوا الأيدى هل تقطيعها ... يمنع الأعين أن تنظر شزرا ؟
اطفئوا الأعين هل اطفاؤها ... يمنع الأنفاس أن تصعد زفرا ؟
أخمدوا الأنفاس هذا جهدكم ... وبه منجاتنا منكم فشكرا ؟

---

(٢٨) الشيخ على الطنطاوى ــ تعريف عام بالإسلام .
(٢٩) النساء : ١٠٤ .

يتعلم المؤمن من القرآن الكريم ومن التطبيقات العملية للدعاة أن الحياة تفقد قيمتها وروعتها ولذّتها حينما يطغى الطغاة وينتشر استبداد المستبدين ويستحيل أداء الواجبات الرَّبانية فضلاً من المستحبات أو الفضائل العامة ، عند ذاك يستعذب المؤمن الموت فى سبيل عقيدته ﴿**ولا تحسبنَّ الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتاً**﴾[30] .

قف دون رأيك فى الحياةِ مجاهداً إنَّ الحياة عقيدةٌ وجهاد

(د) دفع الغبن ورفع العوز بضمانات مثلى :

كما عنى القرآن الكريم بتوجيه التشريعات وتعليلها ، أو بيان بعض الحكمة من ورائها ، ليطمئن قلب المؤمن ويسارع إلى التنفيذ والامتثال لشرع الله ، كذلك عُنى بدفع الغبن ورفع العوز والحاجة التى قد تطرأ وتداهم المؤمن وتشل حركته الإيمانية ، أى تؤثر فى أعماله ـ وعمل المؤمن كلُّه عبادةٌ لله ـ وقد كانت عناية القرآن بهذا الجانب عظيمةً ، وجاءت متمثلةً فى التوجيه نحو العناية والاهتمام بعناصر العدل والعدالة ، والتى نراها تتمثل فيما يلى :

١ ـ أخذ الحكم من مصدره التشريعى الصحيح :

حيث دعا القرآن الكريم إلى أخذ الحكم من مصدره التشريعى الصحيح ، وأكَّد أنَّ العدول عن ذلك يعدُّ غبناً وظلماً فادحاً ، بل هو شركٌ وكفرٌ ، إذ لا يجوز لأحد أنْ يُشرِّع فى الدوائر التى لم يوكل أمرها للعقل البشرى والتى تولَّاها الله سبحانه وتعالى وأنزل بشأنها تشريعاً ، ﴿**ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون**﴾[31]

(٣٠) آل عمران : ١٦٩ .

(٣١) المائدة : ٤٤ .

﴿فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم﴾ (٣٢) **﴿إنَّما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا وأولئك هم المفلحون﴾** (٣٣) .

معنى ذلك أن التحليل والتحريم اللذين يترتب عليهما الثواب والعقاب أمرٌ خاص بالله وحده ، فلا يحق لأحد أن يقول برأيه ، وإلَّا يكون هذا القائل قد خرج عن دائرة الإيمان بوحدانية الله وتفرده فى ربوبيته الخلق تربية خلقية وتشريعية ، وبهذا يكون قد تسبب فى ظلم نفسه وظلم الآخرين معه .

أما ظلم نفسه فمن جهة أنه تسبب فى إخراجها عن فطرتها التى فطرها الله عليها ، وهى الإيمان الفطرى الذى اعتبره الله سبحانه وتعالى بمثابة ميثاق وعهد بين الخالق والمخلوق ، أو بمثابة عقد جرى بين الله والإنسان فى أن ينظر ويفكر متجرداً ، فيصل إلى الإيمان بالله ربَّاً للخلق تربيةً خلقية وتشريعية ، ومن ثم لا يشرك به شيئاً ولا يشاركه فى شىء .

وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا العهد أو العقد والميثاق بقوله تعالى **﴿وإذ أخذ ربُّك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم ؟ قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنَّا كنَّا عن هذا غافلين ، أو تقولوا إنَّما أشرك آباؤنا من قبل وكنَّا ذريَّة من بعدهم أفتهلكنا بما فعل المبطلون ، وكذلك نفصِّل الآيات ولعلَّهم يرجعون﴾** (٣٤) .

إذن نستطيع أن نؤكد ما قررناه من أن يشارك الله فى التحليل والتحريم بالتشريع فى مسائل قد شرع الله فيها ولم يترك فيها مجالاً

(٣٢) النساء : ٦٥ .
(٣٣) النور : ٥١ .
(٣٤) الأعراف : ١٧٢ ـ ١٧٤ .

للعقل البشرى يكون هذا المشارك قد خرج عن دائرة الإيمان ، ويكون قد ظلم نفسه بنفسه بنقض عهدها وميثاقها ، وبجلب العقاب الأليم لها يوم الدين **﴿يوم يفرُّ المرءُ من أخيه وأمِّه وأبيه﴾**[35] **﴿وما ظلمناهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾**[36] ذاك ظلمه لنفسه ، أما ظلمه للآخرين فيتمثل فى إغوائهم وحرمانهم من الخير الدنيوى بسبب تحريمه عليهم الطيبات ، ومن الثواب الأخروى بسبب تحليله لهم المحرمات ، فهو فى الضالين يكون قد قطع طريق الخير والحق عن الخلق ، وربما كان ذنبه أكبر من ذنبهم إذا ارتكبوا تلك المحرمات ؛ لأنهم لا يعرفون الحكم وقد ضُلِّلوا ، أما هو فعارفٌ لحكم الله ، لكنَّه منكر له ومفضل حكم البشر على حكم الله فى المسائل التى لم يكل الله أمرها للبشر..

٢ ـ توخِّى العدل دون تحيُّز أو تحامل :

ضماناً لتوفير العدل والعدالة كانت المهمة التى نيطت برسول الله ﷺ ، وبخلفائه الراشدين ، بل بكل حاكم تولَّى أمر المسلمين ، هى توخى العدل ، والحكم بين الناس بالحق الذى لا يجافى الواقع ولا يعرف التحيز أو التحامل ، ولو كان المحكوم له أو عليه عدوّاً أو مجرماً ، قال تعالى : **﴿ولا يجرمنكم شنآن قومٍ على ألَّا تعدلوا أعدلوا هو أقرب للتقوى﴾**[37] وقال : **﴿إنَّا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ولا تكن للخائنين خصيماً ، واستغفر الله إنَّ الله كان غفوراً رحيماً ، ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم ، إنَّ الله لا يحب من كان خوَّاناً أثيماً ، يستخفون**

---

(٣٥) عبس : ٣٤ .

(٣٦) النحل : ١١٨ .

(٣٧) المائدة : ٨ .

من النّاس ولا يستخفون من الله وهو معهم ، إذ يبيتون ما لا يرضى من القول وكان الله بما يعملون محيطاً ها أنتم هؤلاء جادلتم عنهم فى الحياة الدُّنيا ، فمن يجادل الله عنهم يوم القيامة ؟ أم من يكون عليهم وكيلا ؟ ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً﴾ [٣٨] .

﴿ومن يكسب خطيئةً أو إثماً ثُمَّ يرم به بريئاً فقد احتمل بهتاناً وإثماً مبيناً ، ولولا فضل الله عليك ورحمته لهمَّت طائفة منهم أن يضلُّوك وما يُضلُّون إلَّا أنفسهم وما يضُرونك من شىء وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلَّمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيماً﴾ [٣٩]

وقد بسط المفسرون الحديث حول هذه الآيات تفسيراً وبياناً لأسباب النزول ، والذى يهمنا الآن أن نكون على ذكرٍ دوماً من هذه الآيات التى تحُضُّ على ضرورة توخِّى العدل دوماً ، بل إنَّها قد دعت الرسول ﷺ إلى ذلك ، وحذرته من الانخداع بأساليب ضعاف الإيمان ، والذين كانوا يدبِّرون ليصرفوا الجناية عن الجانى ، ويرموا بها بريئاً من اليهود ، ومن ثمَّ نزلت هذه الآيات توجيهاً للرسول ﷺ حتى لا يحيد عن العدل الذى أمر به الله عزّ وجلّ فى مواطن شتَّى من القرآن الكريم : **﴿إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى﴾** [٤٠]

وقد ثبت عن الرسول ﷺ أنه قال : «**إنما أنا بشرٌ ، وأنه يأتينى الخصم ، ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض فأحسب أنه صادق فأقضى له بذلك ، فمن قضيت له بحق مسلم فإنما هى**

(٣٨) النساء : ١٠٥ ــ ١١٠ .
(٣٩) النساء : ١١ ــ ١١٣ .
(٤٠) النحل : ٩٠ .

قطعة من النار ، فليأخذها أو ليتركها» .

وقد كان الرسول ﷺ وخلفاؤه الراشدون المهديون يعتمدون على تشريع الله فى الحكم ، ثم يجتهدون فى فهم الحادثة من جميع جوانبها متحرين انطباق الحكم عليها ، وهم لا يفرِّقون بين الخصوم فى مجلس القضاء ، فضلاً عن أن يتحيَّزوا أو يتحاملوا ، وحاشا رسول الله ﷺ أن يفعل ذلك ، وهو الذى عصمه ربُّه وهداه ، وعُرف بين قومه قبل البعثة بالصادق الأمين .

٢ ـ الحرص على العدل فى الأقوال وتجنُّب النجوى :

العدل الذى دعا إليه القرآن الكريم لم يكن مقصوراً على الأعمال فقط ولكنه شمل الأقوال أيضاً ، وذلك تحوُّطاً وتحرُّزاً من أن تبقى ثغرةٌ يتكىء عليها الظالمون فيوقعوا ظلمهم على الأبرياء الضعفاء من عباد الله ، بغية إضعاف حياتهم ، وإفساد مجتمعهم ، والحطِّ من كرامتهم بالكذب والغش ، أو بالمكائد والدسائس التى تبنى أساساً على الكذب والخداع .

لهذا كان القرآن الكريم حريصاً ـ كل الحرص ـ على زرع الصدق فى قلوب المؤمنين واحيائه فى نفوسهم ؛ ليحيوا فى الدُّنيا حياةً طيبة ، وينعموا فى الآخرة مع الصديقين والشهداء وحسن أولئك رفيقاً ، بل إنَّ بعض آيات القرآن الكريم قد حصرت الصِّدق والتقوى فى المؤمنين الذين استكملوا كلَّ عناصر البر ، تلك العناصر التى حصرها القرآن الكريم فى :

(أ) الإيمان بالله واليوم الآخر ، والملائكة ، والكتب المنزلة ، والرسل ، والأنبياء والقدر خيره وشره .

(ب) الانفاق فى سبيل الله من مال الله الذى استخلفهم عليه .

(جـ) إقام الصلاة ، المكتوبة وغيرها ، ليتحقق الطهر والنقاء ، والبعد عن الفحشاء والمنكر .

(د) إيتاء الزكاة ، إيماناً وامتثالاً لأوامر الله واسهاماً فى رفع العوز عن المجتمع .

(هـ) الوفاء بالعهود : **﴿وأوفوا بالعهد إنَّ العهد كان مسئولا ..﴾** [٤١] .

(و) الصبر فى البأساء وحين البأس **﴿فأصبر على ما يقولون وسبح بحمد ربِّك﴾** [٤٢] .

﴿ليس البرَّ أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكنَّ البرَّ من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيِّن وآتى المال على حبِّه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرِّقاب وأقام الصَّلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصَّابرين فى البأساء والضَّرَّاء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون﴾ [٤٣] .

هذه الآيات تؤكد تلك العناصر التى من بينها الوفاء بالعهد ، ومعلوم أن الوفاء بالعهد صدقٌ وتقوى ، ولأهمية الصدق كان التهديد والوعيد للمنافقين الكاذبين ، مع بيان صورتهم وحالتهم حتى لا ينخدع الرسول ﷺ بخلابة لسانهم وقوة بيانهم ، قال تعالى : **﴿ومن النَّاس من يعجبك قوله فى الحياة الدُّنيا ويشهد الله على ما فى قلبه وهو ألدُّ الخصام ، وإذا تولَّى سعى فى الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد ، وإذا قيل له اتق**

---

(٤١) الاسراء : ٣٤ .
(٤٢) ق : ٣٩ .
(٤٣) البقرة : ١٧٧ .

الله أخذته العزّة بالإثم فحسبه جهنم ولبئس المهاد﴾[44] .

وما ذاك إلّا لأنّ الكذب خداع وخيانة ، والكذب تآمر ومكيدة ، وكلها أمور ضارة بالمجتمع ، منافية لقواعد العدل والعدالة ، ولهذا حذّر القرآن الكريم من الكذب ورغّب فى الصدق ، ارساءً لقواعد العدل الذى أرسل الرُّسُل لإقامته فى الأرض .

ولم يطالب القرآن المسلمين بالصدق فى القول المعلن فقط ، إنّما طالبهم بالصدق فيه وفى النجوى أيضاً ، حيث قال :

﴿يا أيها الذين آمنوا إذا تناجيتم فلا تتناجوا بالإثم والعدوان ومعصية الرَّسول وتناجوا بالبرِّ والتقوى واتقوا الله الذى إليه تحشرون ، إنَّما النجوى من الشيطان ليحزن الذين آمنوا وليس بضارِّهم شيئاً إلّا بإذن الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾[45] وحيث قال : **﴿لا خير فى كثيرٍ من نجواهم إلّا من أمر بصدقةٍ أو معروفٍ أو إصلاح بين الناس ، ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضاة الله فسوف نؤتيه أجراً عظيماً ، ومن يشاقق الرَّسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نولِّه ما تولَّى ونصله جهنم وساءت مصيراً﴾**[46]

فالقرآن الكريم لم يمنع الناس من النَّجوى إلّا لأن كثيراً من الناس قد يضعف إيمانهم ومن ثم يصطنعون هذا الخُلُق وسيلةً أو سبيلاً للافساد بين الأسر والجماعات والأفراد ، ولهذا كان المنع من النجوى فى القرآن الكريم ، وكان قول رسول الله ﷺ : «**إذا كان ثلاثة فلا يتناجى إثنان دون الثالث**» ، وفى رواية أخرى : «**إذا كنتم ثلاثة رجال فلا يتناجى رجلان دون الثالث ، حتى يختلطوا بالناس**

(٤٤) البقرة : ٢٠٤ ـ ٢٠٦ .
(٤٥) المجادلة : ٩ ـ ١٠ .
(٤٦) النساء : ١١٤ .

إن ذلك يحزنه» .

وما ذلك إلَّا لسد مسارب الشيطان إلى قلب أخيهم ، فيفسد عليه وعليهم ، حيث يقع الثالث فريسة للشكوك والهواجس والظنون ، والمؤمن الكامل الإيمان هو الذى يعمل على إبعاد أخيه عن تلك المزالق الخطرة ، مزالق الظنون والهواجس .

ولو عدنا إلى آخر آية استشهدنا بها فى هذا الصدد لوجدناها تنفى الخير عن كثير من النجوى مستعملةً (لا) النافية للجنس ، وفى ذلك اشعارٌ للمؤمنين بأن أكثر ما يتناجى به النَّاس فى شأن الغير إنَّما هو شرٌّ ولا خير فيه قط ، ذلك لأنَّ الناس جبلوا على الحديث السرى فيما هو غير مرغوب ، أو لا يستطيعون أن يواجهوا به المتحدَّث عنه ، وذاك إثمٌ وضلالٌ ، إلَّا أنَّ الناس فى أخريات الزمان اعتبروا ذلك براعة وكياسة ، بل اعتبروا ذلك فطانة وحصافة لا سيما فى مجالات السياسة أو الخلاعة ، والمجون ، أو التجارة والاقتصاد .

لقد أصبح المناجاة بالإثم خير وسيلة لتدبير المكائد وإلحاق الأذى بالآخرين ، وذاك ظلم فادح احتاط له القرآن الكريم أيَّما احتياط حينما وضع الخطط العملية لتفاديه ، بغية تكوين مجتمع نظيف معافى من هذه الرذائل وأمثالها ، وذلك حينما أرسى قواعد الحضارة الأخلاقية الحقة ، وحينما جعل رسول الله ﷺ القدوة والمثل والأنموذج الذى ينبغى أن يحتذى ويقتدى به ، أى يقتدى به كلُّ أفراد الأمة ـ دون استثناء ـ حكاماً كانوا أو محكومين ، ودعاة أو مدعوين ، وكان خلقه ﷺ القرآن .

٤ ـ إشاعة مبدأ التكافل وربطه بالإيمان :

لكيلا تكون الأموال أداة دمار وتخريب فى يد الأغنياء ووسيلة

حربٍ وتضييق على الفقراء ، عُنِى الْقرآن الكريم ببيان وظيفة المال فى الحياة الدنيا ، كما عنى بالفرد المسلم ليعمر قلبه بالإيمان حتى لا تكون فيه أيَّة مساحةٍ لعبادة الأموال وتقديسها ، أو التكاثر والتفاخر ، وبذاك تصبح الأموال جارية متوفرة فى أيدى المسلمين ، وليست فى قلوبهم ، يجمعونها من حلال ، وينفقونها فى حلال دون منٍّ أو رياء ؛ إذ ينفق أحدهم بيمينه ، حتى لا تعلم شماله ماذا انفقت يمينه ، ودون حسرة أو ندم على الانفاق فى وجوه البر والخير ، طالما كانت الأموال وكل ما فى الكون ملكاً لله ، وطالما كان الإنسان عبدالله مستخلفاً فى أموال الله ؛ لينفع بها نفسه وذويه وبقية عباد الله ..

ومن ثم جاءت أحكام القرآن الكريم شاملة كل ما من شأنه أن يساعد فى استقرار الحياة ، وتهدئة النفوس ، واطمئنان القلوب ، أهم تلك الأحكام هى التى وجَّهت المؤمن وطلبت منه أن ينصرف بجد واجتهاد إلى العمل وفى تجرد واخلاص ، مؤمناً بأنَّ العمل شرف وجهاد ، بل كل عمل المؤمن عبادة متى كان خالصاً لوجهه الكريم ، ومن ثم أوجب على كل مسلم ألَّا يترك العمل إلَّا عند الضرورة أو العجز ، فلا يأكل إلَّا من عمل يده ، إلَّا فى حالة العجز أو الضرورة ، ولهذا قال الرسول ﷺ «**لئن يحتطب أحدكم فيأكل من عمل يده خير له من أن يسأل الناس أعطوه أو لم يعطوه**» وقال : «**مايزال الرجل يسأل الناس حتى يأتى يوم القيامة وليس فى وجهه مزعة لحم**» وقال «**اليد العليا خيرٌ من اليد السفلى**» .

وعلى الرغم من عناية الإسلام ببيان ذلِّ السؤال وتحقيره فى نظر المسلمين فإنه كان فى الجانب الآخر يحث على الانفاق والعطاء عبر الصدقات والزكوات ، ويدعو إلى تكافل الأمة ومسئولية بعضها عن

بعض ، وتآزرها عبر فعل الخيرات واقامة المشروعات النافعة ، ليختفى عن مجتمع المسلمين ـ فى أى زمان ومكان ـ شبح العوز والحاجة المدمرة ، أو شبح العطالة والتعطل المهلك ، كما هو الحال فى بعض مجتمعات الغرب اليوم .

وقد تعمق مبدأ التكافل هذا منذ قيام المجتمع الإسلامى الأول فى عهد رسول الله ﷺ ، وذلك حينما دعا الرسول ﷺ إلى مبدأ المؤاخاة بعيد هجرته ، ليحل الأزمة المعاشية التى داهمت المهاجرين ، ولينظم علاقاتهم الاجتماعية باخوانهم الأنصار فقال : **«تآخوا فى الله أخوين أخوين»** ، فهل أجدى ذلك نفعاً ؟

نعم لقد حقق ذلك المبدأ ما يحار منه كل عقلٍ اقتصادى ملحد ، ويطمئن إليه كلُّ عقل مؤمن بأن الرسول لا ينطق عن الهوى ، إن هو إلَّا وحى يوحى .

كان أن تآخى أبوبكر الصديق مع خارجة بن زهير ، وعمر بن الخطاب مع عتبة بن مالك ، وأبوعبيدة بن الجراح مع سعد بن معاذ ، وعبدالرحمن بن عوف مع سعد بن الربيع ، والزبير بن العوام مع مسلمة ابن سلامة ، وعثمان بن عفان مع أوس بن ثابت ، وطلحة بن عبيد الله مع طلحة بن مالك ، وسعيد بن زيد مع أبى بن كعب ، ومصعب بن عمير مع أبى أيوب خالد بن زيد ، وأبوحذيفة ابن عتبة مع عباد بن بشر ، وعمار بن ياسر مع حذيفة ابن اليمان ، وأبوذر الغفارى مع المنذر بن عمرو ، وحاطب بن أبى بلتعة مع عويم بن ساعدة ، وسلمان الفارسى مع أبى الدرداء ، وبلال مع أبى رويحة[(٤٧)] .

(٤٧) انظر :
- المعودى ـ وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى ـ ١/١٩٠ ـ ١٩١
- البلاذرى ـ أنساب الأسراف ـ ١/٢٧٠ ـ ٢٧١ .
- سيرة ابن هشام ص ١٣٨ ـ ١٣٩ ابن كثير ـ البداية والنهاية ـ ٣/٢٢٦ ـ ٢٢٩

ولم يقف الأمر عند الجانب المظهرى الشكلى المتمثل فى الكثرة العددية للمتآخين والمترابطين برابطةٍ أقوى من رابطة الدم والقبيلة ، إنَّما تعداه إلى تبديل المفاهيم وتغيير التصورات فى أدق الأشياء وأهمها .

من ذلك مثلاً أن الميراث كان محصوراً فى ذوى القرابة والرحم ، ثم صار ميراث الأنصارى يؤول بعد وفاته إلى أخيه المهاجر بدلاً من ذوى رَحِمَهُ من الأخوة والأبناء والنساء ، واستمرَّ الأمر كذلك حتى موقعة بدر التى انتصر فيها المسلمون نصراً مؤزراً فأنزل الله تبارك وتعالى قوله : **﴿وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعضٍ فى كتاب الله إنَّ الله بكلِّ شىء عليم﴾**[٤٨] .

فعاد التوارث سيرته الأولى بعد أن زالت دواعى الارث بالحلف والاخاء ؛ إذ نسخ ذلك الحكم وأزيل بهذه الآية ، نَسَخَهُ الله سبحانه وتعالى الذى أحاط بكل شىء علماً ، والذى تقصر العقول البشرية عن ادراك كثير من جوانب حكمه التشريعية ، «وكل ما شرعه الله حكمة وصواب وصلاح لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد»[٤٩] .

ألم يكن هذا إرساءً لقواعد العدالة الاجتماعية ؟ بلى ، إنَّه تجربةٌ رائدةٌ فى مجال العدل الاجتماعى ، وضع أُسُسها وقواعدها الرسول ﷺ ، فأكد مرونة الإسلام وقدرته على علاج أقوى وأعصى المشاكل ..

وقد يقال أن هذا العمل كانت له آثار جانبية سيئة ، ولكن التاريخ يرد على هؤلاء المغرضين بأن الواقع المعاش وقتذاك بنى هذا الزعم ، ذلك لأن المهاجرين قد قابلوا إيثار اخوانهم الأنصار

---

(٤٨) الأنفال : ٧٥ .

(٤٩) محمد على الصابونى ـ صفوة التفاسير ـ ٥١٧/١ .

وكرمهم وسماحتهم بتقدير كامل وسماحة مماثلة ، ورفضوا منذ البدء أن يكونوا اتكاليين أو أن يصبحوا عالة على أولئك الذين آووهم وقاسموهم ونصروهم .

نذكر هنا ما رواه البخارى من أن المهاجرين لما قدموا المدينة آخى رسول الله ﷺ بين عبدالرحمن بن عوف وسعد ابن الربيع ، فقال سعد لعبد الرحمن إنى أكثر الأنصار مالاً فأقسم مالى نصفين ، ولى امرأتان ، فانظر أعجبهما إليك فَسَمِّهَا لى أطلقها ، فإذا انقضت عدتها تزوجها ، فقال عبدالرحمن : بارك الله لك فى أهلك ومالك ، أين سوقكم ؟ فدلوه على سوق بنى قينقاع فما انقلب إلّا ومعه فضل من أقط وسمن ، ثم تابع .

فالمسلم الغنى لا يعرف الشح والأنانية ، لأن المال مال الله وهو مستخلف فيه ، ولأنه مؤمن بأن فى الأموال حقاً معلوماً للسائل والمحروم ..

ومن ثم كان الربط المحكم بين الصلاة والزكاة من جانب ، وبين الزكاة والإيمان من جانب آخر ، قال تعالى : **﴿وما أمروا إلَّا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصَّلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيِّمة﴾**[50] .

وقال تعالى : **﴿واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً وبذى القربى واليتامى والمساكين والجار ذى القربى والجار الجنب ، والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت أيمانكم إنَّ الله لا يحبُّ من كان مختالاً فخورا ، الذين يبخلون ويأمرون النَّاس بالبخل ويكتمون ما آتاهم الله من فضله واعتدنا للكافرين عذاباً مهيناً ، والذين ينفقون أموالهم رئاء النَّاس ولا يؤمنون بالله ولا باليوم**

---

(٥٠) البينة : ٥ .

الآخر ، ومن يكن الشيطان له قريناً فساء قرينا ، وماذا عليهم لو آمنوا بالله واليوم الآخر وانفقوا ممَّا رزقهم الله وكان الله بهم عليماً﴾ [٥١] .

لقد ربطت هذه الآيات بين عبادة الله وبين الإحسان المستمر بالطوائف التى ذكرت فى الآية خاصة من ذكروا أولا وهم الوالدان ، وقلنا بالطوائف ولم نقل على الطوائف تمشياً مع أسلوب القرآن الكريم الذى آثر فى هذا المقام استعمال «الباء» ، ولم يكن استعماله اعتباطاً أو حلية لفظية ، ولكن ليؤكِّدَ ضرورة أن يتصل البر والاحسان بمن ذكروا اتصالاً قوياً دون حاجز أو فاصل ، كان ذلك الحاجز مادياً أو معنوياً ...

ونعنى بالحاجز المادى القاء ذلك الاحسان من عل ونشره على الأرض هنا وهناك كما يُلقى العشب أو العلف فى حظيرة الدواب ، ونقصد بالحاجز المعنوى الرياء والمن الذى يجعل المحسن إليه يتباعد ويكره مثل هذا الإحسان .

فالحاجز المادى أو المعنوى كلاهما ضار مؤذ بالمحسن إليه ولا يتناسب مع القرب أو الالصاق الذى فُهم من الآية باستعمال الباء .

ويلاحظ أنَّ الآية قد ركَّزت على قطاعات المجتمع المختلفة بدءاً بعماد الأسرة وهو الأب ، والأسرة هى الخليَّة الأولى للمجتمع .

وقد جعل القرآن الكريم الانفاق فى كل أوجه الخير وسيلةً لتزكية النفوس وتنمية الأموال : **﴿قد أفلح من تزكى وذكر اسم ربِّه فصلى﴾** ، كما بين أن سعى الناس مختلف فى حقيقته ، مختلف فى بواعثه ودوافعه ، ومن ثمَّ فهو مختلف فى نتائجه وثمرته ، أو ما يترتب عليه من ثواب أو عقاب ، وما ذاك إلَّا لأن القرآن الكريم يريد

---

(٥١) النساء : ٣٦ ـ ٣٩ .

للمسلمين أجمعين حياة طيبة كريمة نظيفة شريفة ، ولهذا شُرعت الزكوات وفعل الخيرات لما لها من آثار طيبة فى نفوس المعطين والمستفيدين ، وفى المجتمع بأسره ، وذلك بإزالة شبح البلاء والمصيبة الكبرى وهى الفقر ، ذلك الفقر الذى تعوَّذ منه الرسول ﷺ ، فعن عائشة رضى الله عنها أنها قالت كان الرسول ﷺ يقول : «**اللهم إنى أعوذ بك من فتنة النار ، ومن عذاب النار ، وأعوذ بك من فتنة القبر ، ومن عذاب القبر ، وأعوذ بك من فتنة الغنى ، وأعوذ بك من فتنة الفقر**» .

تحقيقاً لذلك المبدأ ، مبدأ الحياة الكريمة الفاضلة الشريفة فى جميع المجتمعات الإسلامية ـ فى أى زمان ومكان ـ كانت اجتهادات قدامى فقهاء المسلمين والمحدثين منهم حول ما تساهم به الزكاة فى علاج الفقر ودفع العوز والحاجة ، فذهب الامام أبوحنيفة إلى عدم قصر الاعطاء من الزكاة على المحتاج فقط ، إنما يعطى هو ويعطى كلٌّ فرد من أفراد عائلته دفعاً للعوز والحاجة ومنعاً للفقر القاتل ، وذهب الامام مالك إلى اعطاء المحتاج فقط ، ولكن يُعطى ما يكفيه لمدة عام ، وهكذا ذهب جمهور الحنابلة وبعض الشافعية ، أما الامام الشافعى فقد ذهب إلى القول بإعطاء الفقير والمسكين كفاية عمره .

وقد نحا الدكتور القرضاوى وغيره من الفقهاء المحدثين هذا المنحى فى البحث عن أهمية الزكاة وآثارها الاقتصادية والاجتماعية ، والبحث عن أنجح السبل لإزالة الفقر عن مجتمع المسلمين ومحوه عنهم كما يمحو لسانُ الصبح مداد الظلام ، فظهر من يدعو إلى اعطاء الفقير المواد الغذائية أو الاستهلاكية لمدة عام ، ومن يدعو إلى إعطاء الفقير التأهيل الفنّى والأدوات الانتاجية التى تعينه على كسب

العيش وضمان الحياة الكريمة له ولأسرته وهذا ما نميل إليه .

بهذا أو ذلك سيزول شبح الفقر عن مجتمع المسلمين ـ لا محالة ـ لا سيما وأن الفقر أمر طارىء عارض شأنه شأن المرض الذى يزول ـ بإذن الله ـ بالعلاج والدواء ، ويستوطن ويفتك بالاهمال والتغافل ، هذا وقد رُوى عن رسول الله ﷺ أنه أخبر عن زمن يستغنى فيه الناس عن الصدقة ، وذلك فيما وى عن أبى موسى الأشعرى عن النبى ﷺ أنه قال :

«ليأتين على الناس زمان يطوف الرجل فيه بالصدقة من الذهب ثم لا يجد أحداً يأخذها منه» .

نعم سيتحقق هذا إذا أخذ الناس بصرف الزكاة على الفقراء بناءً على الرأى القائل الفقير ما يكفيه لمدة عام أو اعطائه التأهيل والأدوات الانتاجية ؛ إذ سيتمكن من استثمار ذلك ، وقد يوفق فيصبح غنياً مخرجا للزكاة ، ومن ثم كان تفضيلنا وترجيحنا لهذا الرأى ، لا سيما وأن القول باعطائه قوت ليلة أو ليال يظهر فيه عدم اتاحة الفرصة أمام الفقير ليستثمر شيئاً ليصبح منتجاً معطيا ، لكنه يظل مستهلكاً لاهثاً وراء تغطية الديون أو تغطية المصروفات الضرورية ، ومن ثم يبقى منزبقاً أخبار مخرجى الزكاة ، أو يبقى ماداً يده فى الطرق والمساجد .

وما ذاك إلّا لغيبة بيت مال المسلمين الذى سيعنى بتخصيص ديوان للزكاة تكون مهمته جمع الزكوات وإعداد الدراسات العاجلة الوافية عن فقراء البلدة المسلمة ثم إعطاؤهم ما يكفيهم أو يزيل عنهم شبح الفقر لكيلا يترددوا على بيت المال أو ديوان الزكاة كل شهر وكل عام ، لأن مثل هذا التردد يتنافى مع روح الإسلام الذى يبغض الفقر ويسعى للقضاء عليه من ساحة المجتمع المسلم

بشتى السبل وفى مقدمتها ، وأهمها الزكاة .

نجد ذلك واضحاً من خلال أقوال الرسول ﷺ : **«والذى نفسى بيده لا تدخلوا الجنة حتى تراحموا ، قالوا كلنا رحيم يا رسول الله ، قال : إنه ليس برحمة أحدكم ، يعنى نفسه وأهل خاصته ولكن رحمة العامة»**[٥٢] **«مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى»**[٥٣] . **«أيما أهل عرصةٍ ظلَّ فيهم امرؤ جائعاً فقد برئت منهم ذمة الله»**[٥٤] **«من كان معه فضل ظهر فليعد به على من لا ظهر له ومن كان له فضل زاد فليعد به على من لا زاد له» «ليس لك من مالك إلَّا ما أكلت فأفنيت ولبست فأبليت وتصدقت فأبقيت وما دون ذلك لغيرك»** .

هذا نور على نور ، بهما ينبلج الصبح وتزول الظلمة عن المجتمع المسلم ، ليسعى فى الأرض حثيثاً بغية عمارة الكون ، عند ذاك لن يسرق أحد من أفراده بسبب الجوع أو الحاجة ، ولن تضطرَّ امرأةٌ لأن تبيع عرضها من أجل المال ، ولن يحرم أحدٌ من حقوقه ، ذلك الحرمان الذى هو سبب الحقد وباعث الغضب ومشعل الفوضى والاضطراب داخل المجتمع .

ولا يظن أحد أن ذلك سيتحقق للمجتمع المسلم بسبب توفر المال وحده ، كلا ثم كلا ؛ إذْ قد يكون المال سبباً فى انحراف المجتمع وضياعه إذا لم تشع بين أفراد المجتمع مجموعةٌ من القيم والأخلاق الاسلامية .

وقد قصَّ علينا القرآن الكريم قصَّة سبأ وقصَّة قارون وغيرهما

---

(٥٢) رواه الحاكم .

(٥٣) مسلم ــ كتاب البر والصلة ، باب تراحم المؤمنين رقم ٢٥٨٦ .

(٥٤) رواه ابن أبى شيبة فى مسنده .

بغية تأكيد هذه الحقيقة ، حقيقة أن الغنى وحده لا يحلُّ مشكلات المجتمع ، قال تعالى : ﴿**لقد كان لِسَبإٍ فى مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمالٍ ، كلوا من رزق ربِّكم واشكروا له بلدةٌ طيبةٌ وربٌّ غفور ، فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم وبدَّلناهم بجنَّتيهم جنتين ذواتى أُكلٍ خَمْطٍ وأثلٍ وشىء من سدرٍ قليلٍ ، ذلك جزيناهم بما كفروا وهل نجازى إلَّا الكفور**﴾ (٥٥) .

ذلك أن قوم سبأ قد كفروا بانعم الله فخرب الله ملكهم وشتت شملهم فكانوا عبرة لمن يعتبر ، وقال تعالى : ﴿**إنَّ قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم وآتيناه من الكنوز ما إنَّ مفاتحه لتنوء بالعصبة أولى القوة إذ قال له قومه لا تفرح إنَّ الله لا يحبُّ الفرحين . وابتغ فيما آتاك الله الدَّار الآخرة ولا تَنْسَ نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك ولا تبغ الفساد فى الأرض إنَّ الله لا يحبُّ المفسدين . قال إنَّما أوتيته على علمٍ عندى أو لم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشدُّ منه قوةً وأكثر جمعاً ولا يسئل عن ذنوبهم المجرمون . فخرج على قومه فى زينته ، قال الذين يريدون الحياة الدُّنيا يا ليت لنا مثل ما أوتى قارون إنَّه لذو حظٍّ عظيمٍ . وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خيرٌ لمن آمن وعمل صالحاً ولا يلقاها إلَّا الصَّابرون . فخسفنا به وبداره الأرض فما كان له من فئةٍ ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين**﴾ (٥٦) أى جعل الله الأرض تغور به وبكنوزه جزاء تكبُّره ، وبقيت قصَّته عظةً وعبرةً للمعتبرين .

---

(٥٥) سورة سبأ : ١٥ ــ ١٧ .

(٥٦) سورة القصص : ٧٦ ــ ٨١ .

٥ ـ لا تجريم بأثرٍ رجعيٍّ ولا تزر وازرةٌ وزر أخرى :

من الضمانات المثلى التى وضعها القرآن الكريم لدفع الغبن ورفع الظلم عن كاهل المجتمع المسلم ذلك المبدأ الذى أقرَّته الشريعة الإسلامية وهو مبدأ أن لا تجريم بأثر رجعى ولا تزر وازرة وزر أخرى ، معنى ذلك أن القرآن الكريم عندما نزل على نبينا الكريم لم يأمره بمحاسبة الناس على ما فعلوه قبل بزوغ فجر الدعوة الإسلامية ، كما لم يخاطب الذين ماتوا قبل إشراق نور القرآن الكريم على دجى الكون ، ومن ثمَّ أكَّد الرسول ﷺ أن أهل الفترة ناجون ، أما الذين حضروا الإسلام ولبَّوا دعوته واستجابوا لندائه فلا يحاسبون على ما فعلوه قبل بلوغ الدعوة إليهم ، أو قبل اسلامهم ؛ لأن الإسلام يَجُبُّ ما قبله ، كما قال الرسول ﷺ لخالد بن الوليد .

هذا وقد أكد القرآن الكريم أنه لا عقاب ولا حساب إلَّا بعد أن تقوم الحجة ببعث الرسل الذين يذكرون الناس ويوضحون لهم أقوم السبل ، قال تعالى : **﴿وما كُنَّا معذبين حتى نبعث رسولاً﴾**[٥٧] كما أكد القرآن الكريم المسئولية الفردية لعمل الإنسان الانفرادى ، مشيراً إلى أنه لا حساب ولا عقاب يمسُّ أياً من أهله وأقاربه وأصدقائه وجيرانه ، قال تعالى : **﴿وكلُّ إنسانٍ ألزمناه طائره فى عنقه ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً ، إقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً ، من اهتدى فإنَّما يهتدى لنفسه ومن ضلَّ فإنَّما يضل عليها ولا تزر وازرةٌ وزر أخرى﴾**[٥٨] .

ولم يكتف القرآن الكريم بتقرير وتأكيد ضمانات عدم الظلم

---

(٥٧) الاسراء : ١٥ .

(٥٨) الاسراء : ١٣ ـ ١٥ .

والاعتداء على أسرة وعشيرة الجانى ، أو أصدقائه وزملائه ، ولكنه ضَمِنَ إلى جانب ذلك ـ عدم ظلم هذا الجانى نفسه فرداً كان أم هيئة جماعية ، وذلك حينما قرر مبدأ اعلام الناس أو المواطنين بكنه القاعدة القانونية قبل تطبيقها عليهم ، قال تعالى : **﴿يا أيها النبيُّ إنَّا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً ، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً ، وبشِّرِ المؤمنين بأنَّ لهم من الله فضلاً كبيراً﴾**(٥٩) أى أن محمداً صلوات الله وسلامه عليه قد أرسل شاهداً على أمته وعلى جميع الأمم بأن أنبياءهم قد بلغوهم رسالة ربهم ، وتبليغ الرسالة هو إعلامٌ بما للإنسان وما عليه تجاه ربه ، وبمستوجبات الثواب والعقاب الدنيوى أو الأخروى ، ومستوجبات الثَّواب والعقاب هى التى تُطلق عليها كلمة (القاعدة القانونية) .

ولا أحد من المسلمين ينكر إعلامه بالقواعد التى بموجبها يتم الثواب أو العقاب طالما أن النبى ﷺ ـ وهو السراج الوضَّاء الذى بدَّد الله به ظلمات الضلال ـ قد بين ذلك بأقواله وأفعاله وتقريراته ، وقال : «**تركت فيكم ما إنْ تمسكتم بهما لن تضلوا بعدى أبداً**» ، وطالما كان المسلم يتمسك بالقرآن والسنة ، ويتلو القرآن دوماً تلاوة تأمل وتدبر **﴿أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوبٍ أقفالها﴾** .

ولمَّا كانت الجريمة الجنائية مسئولية فردية لا تتعدى الجانى إلى غيره لأىِّ سبب غير ملابسات الاشتراك والتواطؤ والتدبير كان لا بد للشريعة الإسلامية من وضع الاعتبار الكافى لموانع المسئولية ، فرفعت أو اسقطت العقوبة فى حال وجود مانع من موانع المسئولية ، مثل : صغر السن . (عدم التكليف) ، الاكراه ، الخطأ ، الجنون ، النسيان ، قال صلوات الله وسلامه عليه : «**رفع**

---

(٥٩) الأحزاب : ٤٥ ـ ٤٧ .

عن أمتى الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه» .

أبعد هذا يتشدَّق المتشدقون فيتقوَّلون ويتغوَّلون على الإسلام والمسلمين حينما يصفونهم بالوحشية ويصفون الإسلام بالجمود والقسوة ، أما كان حريّاً بهم ألَّا يهرفوا بما لا يعرفوا ، وأما كان الأولى أن يتحدثوا عن الأنظمة الوضعية ـ فى عالمنا الإسلامى ـ ثوريةً كانت أم غير ثورية ليبينوا للناس أى نظام كان قريباً من مبادىء العدالة والرحمة التى أرسى قواعدها القرآن الكريم ، وأى نظام أوغلُ فى القسوة والتجنى على الأبرياء والمتهمين ، وأكثر ميلاً إلى الاعتداء على أعراضهم وأعراض ذويهم ، حتى ليخيَّلُ للمرء أنَّ كثيراً من مجتمعاتنا قد صارت أقرب إلى مجتمعات الجاهلية الأولى والتى شاع فيها الاعتداء على العرض بطرق مختلفة ، على حين أن الإسلام قد جعل من أول أهدافه حماية الإنسان وصيانة كرامته ، فأسجد له ملائكته ، ومنعه من أن يسجد لغير الواحد القهار ، (وهذا بالنسبة لأبى البشر) ..

أما ذريته فقد شملتهم العناية الالهية بصون كرامتهم أيضاً ، حيث شملهم منع السجود لغير الواحد الأحد ، بل وضعت لهم أطر وضوابط تجنِّبهم مزالق السقوط فى فاحشة السجود لغير الله تبارك وتعالى ، أو فاحشة الاعتداء على الأعراض وغيرها ، قال تعالى : **﴿إنَّ الصَّلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر﴾** وقال : **﴿إنَّ الله لا يأمر بالفحشاء﴾ ﴿قل إنَّما حرم ربِّى الفواحش ما ظهر منها وما بطن﴾** .

ثم وضع لفاحشة الاعتداء على الأعراض عقوبتين : عقوبة مادية ، وعقوبة أدبية ، وقد جعل العقوبة المادية علنية جسدية وليست مالية ، قال تعالى : **﴿الزانية والزَّانى فاجلدوا كلَّ واحدٍ**

منهما مائة جلدةٍ ولا تأخذكم بهما رأفةٌ فى دين الله إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين﴾(٦٠)

أما العقوبة الأدبية فقد تمثلت فى حرمان الزانى والزانية من التزاوج من الأسر المؤمنة الشريفة ، يشير إلى هذا قول الله عزّ وجلّ : **﴿الزّانى لا ينكح إلّا زانيةً أو مشركة والزانية لا ينكحها إلّا زانٍ أو مشركٌ وحُرِّم ذلك على المؤمنين ...﴾**(٦١)

وما ذاك إلّا من أجل صيانة كرامة الإنسان وحماية لبنات المجتمع المسلم من عوامل التصدُّع والانهيار ، ولا غبن ولا ظلم فى هذا على الجانى الزانى ، لأنّه أعلم بقاعدة العقوبة قبل تطبيق العقوبة عليه ، ولأنّه لا يعاقب حتى تثبت إدانته ثبوتاً قطعياً وليس ظنياً أو راجحاً ، وإلّا اعتبر توجيه التُّهمة إليه اعتداء على عرضه عن طريق القذف ، قال تعالى : **﴿والذين يرمون المحصنات ثمَّ لم يأتوا بأربعة شهداء فأجلدوهم ثمانين جلدةً ولا تقبلوا لهم شهادةً أبداً وأولئك هم الفاسقون ، إلّا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فإنَّ الله غفورٌ رَّحيمٌ﴾**(٦٢) .

إذا كان الزانى قد وضعت له عقوبتان : مادية وأدبية ، فالقاذف بالزنا وضعت له ثلاث عقوبات :

١ ـ أن يجلد ثمانين جلدة .

٢ ـ أن تُردَّ شهادته أبداً .

٣ ـ أن يكون فاسقاً ليس بعدل ، لا عند الله ولا عند الناس(٦٣) .

---

(٦٠) النور : ١ ـ ٢ .

(٦١) النور : ٣ .

(٦٢) النور : ٤ ـ ٥ .

(٦٣) ابن كثير ـ مختصر تفسير ابن كثير ٥٨٣/٢ .

(هـ) دعوة إلى الأخوَّة الإيمانية والوحدة الإنسانية :

هناك حقيقة ربما غابت عن أذهان الذين لم يتدبروا القرآن الكريم ، هى أن القرآن الكريم قد وضع الدعامة الأولى للوحدة الإنسانية والتى ترجع بالناس جميعاً إلى منبع واحد وتضعهم جميعاً فى مستوى واحد دون تفاضل بينهم إلَّا ما قد يكون من تفاوت فى العمل أو التقوى ، قال تعالى : **﴿يا أيُّها النَّاسِ إنَّا خلقناكم من ذكرٍ وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إنَّ أكرمكم عند الله أتقاكم﴾** .

حيث كان النداء بيا أيها الناس ، «يا بنى آدم» التى تكررت فى أكثر من موضع فى القرآن الكريم من ذلك قوله تعالى :

﴿يا بنى آدم قد أنزلنا عليكم لباساً يوارى سوءاتكم وريشاً ، ولباس التقوى ذلك خيرٌ ، ذلك من آيات الله لعلهم يذَّكرون﴾ وقوله تعالى : **﴿يا بنى آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوءاتهما﴾** وقوله تعالى : **﴿يا بنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجدٍ وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنَّ الله لا يحب المسرفين﴾** وقوله تعالى **﴿يا بنى آدم إمَّا يأتينكم رسلٌ منكم يقصُّون عليكم آياتى فمن اتَّقى وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، والذين كذَّبوا بآياتنا واستكبروا عنها أولئك أصحاب النَّار هم فيها خالدون﴾**

ومن الثابت أن لهذه النداءات جميعاً دلالات عديدة وهامة ، أبعد هذا يتقول المتقولون ، أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها ، وقد لاحظ الأستاذ الدكتور رمضان البوطى (٦٤) جوانب هامة فى موضوعات القرآن تؤكد النزعة الإنسانية فى القرآن

---

(٦٤) د . محمد سعيد رمضان البوطى ـ من روائع القرآن ص ٢٦١ ـ ٢٦٢ .

الكريم ، وقد ركزها فى الموضوعات التالية :

(أ) العقيدة . (ب) التشريع . (ج) الأخلاق والمبادىء .

وقد تحدث عن كل جانب من هذه الجوانب حديثاً ضافياً وافياً ، نأخذ منه قبسات فى جانبى : التشريع ، والأخلاق والمبادىء ، حيث قال عن النزعة الإنسانية فى جانب التشريع :

«إذا أمعنت النظر وجدت قانون كل أمة ودولة أو جماعة من الناس ، إنما يعكس طبيعتها وأعراقها ويتجاوب مع ظروفها ، فشريعة كل أمة إذاً تعبيرٌ عن حاجتها ومتطلباتها فقط ، دون نظر إلى ما وراء حدودها .

غير أن التشريع القرآنى لا تجد فيه أىَّ منزعٍ إلى عرق أو طائفة أو جماعة ، وإنما هو ينبثق عن أُسسٍ ومبادىء إنسانية مطلقة بحيث تأتى عامَّة فروعه متطابقة معها فى دقَّةٍ واطراد .

ولنضرب أمثلة لايضاح هذه الحقيقة :

سورة النساء ، من السور التى تفيض بالأحكام التشريعية المتعلقة بتنظيم الأسرة وحقوق المرأة ، ونظام الحكم ، وتقويم العدالة وضبط حقيقتها .

فانظر كيف بدأت هذه السورة بوضع الركيزة الأساسية لتلك الأحكام كلها ، وكيف لفتت أنظار الذين سينصتون إلى هذه الأحكام التالية ، إذ أنَّ المنطلق إلى تقريرها ووجوب الأخذ بها إنما هو النظر إلى مصلحة الأسرة الإنسانية المطلقة دون التفات إلى الظروف المتنوعة والمختلفة للبيئات والجماعات ، وهذه هى الركيزة الأساسية : **﴿يا أيُّها النَّاس اتَّقوا ربَّكم الذى خلقكم من نفسٍ واحدةٍ وخلق منها زوجها ، وبثَّ منهما رجالاً كثيراً ونساءً ، واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام إنَّ الله كان عليكم رقيباً﴾**[٦٥] .

(٦٥) د . محمد سعيد رمضان البوطى ـ من روائع القرآن ص ٢٦١ ـ ٢٦٢ .

ثم قال عن النزعة الإنسانية فى الأخلاق والمبادىء ما يلى :

«ليس الخلق النبيل فى القرآن عبارة عن السلوك الذى ينسجم مع ما تواضعت عليه البيئة أو الجماعة المعينة من المعايير السلوكية والخلقية المستحسنة كما هى النظرة لدى عامة الذين بحثوا من عند أنفسهم فى مقومات الفضيلة والأخلاق .

وإنما الأخلاق والفضيلة فى القرآن مجموعة الاعتبارات والمناهج السلوكية التى تتلاءم مع الفطرة الإنسانية الصافية من جانب ، وتساعد فى إرساء قواعد لإسعاد الإنسانية والفرد والجماعة من جانب آخر ، ومن ثم فأنت لا تجد فى هذه المناهج السلوكية قابلية للاختلاف والتغيير ما بين بيئة وأخرى ، لأنها لم تنشأ من أعراف بيئة ، ولكنها انبثقت عن الفطرة الإنسانية الشاملة .

فمن المبادىء الخلقية فى القرآن اعتبار الناس كلهم مهما اختلفت أعراقهم وأنسابهم فى مستوى واحد من الكرامة والحرية الإنسانية ، ولا يتفاضلون بعد ذلك إلّا بما يحرزه كل منهم من السبق بسعيه الخاص فى ميدان الجهد الإنسانى المفيد المشرف ، قال تعالى **﴿يا أيُّها النَّاس إنَّا خلقناكم من ذكرٍ وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾**[٦٦] ومن المبادىء الخلقية فى القرآن الكريم الزام الأبناء بحسن معاملة الآباء وخفض جناح اللطف والرحمة لهم مهما كان بين الطرفين من تباعد فى الرأى أو اختلاف فى المذهب ، وهو مبدأ إنسانى غير ناظر إلى طبيعة خاصة أو عرف معين ، يقتضيه ضمان الأسرة الإنسانية التى تتدرج صعدا من الخلية الأولى فى المجتمع وهى الأسرة ..»[٦٧] .

(٦٦) الحجرات : ١٣ .

(٦٧) د . محمد سعيد رمضان البوطى ـ من روائع القرآن ص ٢٦٤ ـ ٢٦٥ .

خاتمة

حاجتنا إلى تعميق العقيدة

١ ـ تعميق العقيدة يرأب الصَّدع ويدعم وحدة الأمَّة :

هل الدعوة فى هذا الزمان بحاجة ماسة إلى تنظير وتصنيف لأفكارٍ وآراء ؟ أم هى بحاجةٍ إلى العمل الدؤوب فى مجال تعميق العقيدة وتركيزها فى النفوس ؟

أحسب أنَّ الآراء قد كثرت وانتشرت فى بيئاتنا الاسلامية وبين العاملين فى حقل الدعوة إلى الله على مختلف مستوياتهم ، فى الوقت الذى بدأت فيه العقيدة تهتزُّ عند كثيرٍ من شبابنا وبعض شيوخنا ، بل أخذت تتناقص وتتوارى فى كثير من البلدان الإسلامية .

ومن ثم أقول لا قيمة للرأى أو الفكر ما لم تدعمه العقيدة ، وقلَّما تؤتى أمَّةٌ من نقصٍ فى الرأى أو الفكر ، ولكن كثر ما تؤتى من ضعف فى العقيدة ، وكثر ما تؤتى من كثرة الآراء المتضاربة ، أو غير المتآزرة ..

وأعتقد أن الآراء ـ فى معظم بيئاتنا الإسلامية ـ قد كثرت وتضاربت ، والعقيدة اهتزت وتناقصت ، ولا أعنى بالعقيدة هنا مجرد الإيمان الظاهرى ، ولكن عنيت الإيمان المتعمق فى النفس والمترجم بالعمل ، عبر الصدق فى القول والعمل ، مع النفس والغير ، وعبر الأمانة فى الدين والمال والعرض ، مع النفس والغير ، وعبر كل أنواع العمل الصالح ...

فهذا هو الإيمان الحق ، وهو الذى ذكره المولى عزّ وجلّ فى القرآن الكريم ونعته بالصدق حيث قال : ﴿**قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولمَّا يدخل الإيمان فى قلوبكم وإنْ**

تطيعوا الله ورسوله لا يلتكم من أعمالكم شيئاً إنَّ الله غفورٌ رحيمٌ ، إنَّما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله أولئك هم الصادقون﴾[1] .

حيث قصرت الآية المؤمنين حقًّا على من توفرت لديهم مواصفات معينة هى : الإيمان بالله ورسوله ، وعدم الارتياب ، الجهاد فى سبيل الله بالمال والنفس ، ثم أجملت ذلك كله فى الصدق ، مع ملاحظة أن الآية لم تخبر بهذا الصدق إخباراً عادياً ، إنما أكدته بضمير الفصل : **﴿أولئك هم الصَّادقون﴾** .

الصدق إذن هو الفارق الحقيقى بين الإيمان والنفاق ، الصدق فى مواجهة النفس ومواجهة الواقع مهما كان مريراً أليماً ، وبالطبع لن تكون مثل هذه المواجهات إلَّا من صاحب عقيدةٍ قوية متأصلةٍ ؛ إذ من العقيدة المتأصلة ينبعث نورٌ باطنىٌّ فيضىء جوانب النفس الإنسانية ويبعث فيها القوة والحياة ، ومن ثم يستعذب صاحبها العذاب ويستصغر العظائم ، وبهذا يصبح أبيّاً صامداً صابراً ، ينتصر على وسوسة الوسواس الخناس ، ويغلب نفسه الأمارة بالسوء ، ويبقى مع عقيدته كالطَّودِ الأشَم ، لا يتحول عنها مهما حوصر أو ضُيِّق عليه .

وقد ضرب لنا الرسول ﷺ أروع أمثلة فى هذا الصدد فى مواقف عديدة تزخر بها سيرته العطرة ، نذكر منها قوله ﷺ : **«والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أدع هذا الأمر الذى جئت به ما تركته» ولا نود أن نتتبع جميع مواقف الرسول ﷺ فى هذا الصدد ، فذاك ليس من موضوع هذا**

---

(١) الحجرات : ١٤ ـ ١٥ .

البحث ، ومن ثم نشير إلى أن سيرة رسولنا ﷺ كانت تجربة غنيَّة بأحداثها ، زاخرة بدلالاتها ، متنوعة بمعطياتها ،[2] ويجب أن نستمد منها النور لدربنا والأمل لحياتنا ، لا سيا فى مجال تحمُّلِ المكاره والصَّبْر على الشدائد ، وتحمُّل أذى المؤذين فى سبيل العقيدة بكياسةٍ وفطانة ، لا تحمل جزعٍ وفزعٍ ، أو خنوعٍ واستكانة ، وقد عنى القرآن الكريم بتعميق العقيدة وتركيزها ، مفرداً لذلك سوراً بأكملها من طوال السور ، مثل سورة الأنعام ، ومن قصار السور ، مثل سورتى الاخلاص والكافرون ، وغيرهما من السور التى اشتملت على آيات كانت تستهدف تعميق العقيدة وتأصيلها فى النفوس ، بغية إصلاح النفوس ذاتها ، قال تعالى : **﴿فالذين لا يؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة وهم مستكبرون﴾**[3] وقال : **﴿إن الذين هم من خشية ربِّهم مشفقون ، والذين هم بآيات ربِّهم يؤمنون ، والذين هم بربهم لا يشركون ، والذين يؤتون ماءآتوا وقلوبهم وجلةٌ أنَّهم إلى ربِّهم راجعون ، أولئك يسارعون فى الخيرات وهم لها سابقون﴾**[4] وقال : **﴿وإن الذين لا يؤمنون بالآخرة عن الصراط لناكبون﴾**[5] هذه الآيات ــ فى مجملها تدعو إلى الإيمان والتوحيد الخالص ، وتشير إلى أن الإيمان بالآخرة يجعل المؤمن يتحمَّل أو يقوى على تحمُّل المكاره ومغالبة الشدائد مضحياً بماله ونفسه فى سبيل الله ، وفى سبيل الحق ، دون اكتراث لما

---

(٢) انظر :
١ ــ سيرة الرسول : صور مقتبسة من القرآن الكريم ــ محمد عزة دروزه .
٢ ــ تهذيب سيرة ابن هشام ــ عبدالسلام هارون .
(٣) النحل : ٢٢ .
(٤) المؤمنون : ٥٧ ــ ٦١ .
(٥) المؤمنون : ٧٤ .

يحدث له فى الدنيا ، وذلك إيماناً منه بأن الدنيا زائلة لا محالة ، طال أو لم يطل البقاء فيها ، وأنه سيلقى ربه وسيجزيه الجزاء الأوفى ، وقد تأكد هذا الجزاء بقول الله عزّ وجلّ :

﴿فأنذرتكم ناراً تلظّى ، لا يصلاها إلّا الأشقى الذى كذب وتولّى ، وسيجنبها الأتقى الذى يؤتى ماله يتزكى ، وما لأحدٍ عنده من نعمة تجزى إلّا ابتغاء وجه ربّه الأعلى ، ولسوف يرضى﴾ (٦)

نجد فى هذه الآيات صورتين متعاكستين ، وهما معا تساعدان على تصحيح العقيدة وتثبيتها فى النفس ، إنْ كانت النفس خاليةً منها ، أو تعميقها وتركيزها فى نفوس المؤمنين بعقيدة الإسلام لله تبارك وتعالى .

الصورة الأولى هى صورة أشقى الأشقياء فى عباد الله ، ترى من يكون أشقى أشقياء عباد الله ؟ هو كل من كذَّب وأعرض عن دعوة التوحيد ؛ إذ يكون بذلك قد أعرض وتولَّى عن الهدى ، وعن دعوة الله إلى الهداية .

الصورة الثانية صورة الأسعد بين عباد الله ، ترى من يكون هذا الأسعد ؟ هو ـ كما أخبرت السورة ـ الأتقى الذى يؤتى ماله تطهيراً وابتغاء وجه ربه الأعلى : «هو التقى النقىُّ المبالغ فى اجتناب الشرك والمعاصى ، ثم فسره تعالى بقوله : **﴿الذى يؤتى ماله يتزكى﴾** أى الذى ينفق ماله فى وجوه الخير ليزكى نفسه **﴿وما لأحدٍ عنده من نعمة تجزى﴾** أى وليس لأحد عنده نعمة حتى يكافئه عليها ، وإنما لوجه الله ، قال المفسرون : نزلت الآيات فى حق أبى بكر الصديق حين اشترى بلالاً وأعتقه فى سبيل الله ، فقال المشركون : إنما فعل ذلك لِيَدٍ كانت له عنده فنزلت **﴿إلّا ابتغاء**

---

(٦) الليل : ١٤ ـ ٢١ .

وجه ربِّه الأعلى﴾ أى ليس له غاية إلَّا مرضاة الله **﴿ولسوف يرضى﴾** أى ولسوف يعطيه الله فى الآخرة ما يرضيه وهو وعدٌ كريم من رب رحيم) [7] .

هذا الاتقى الذى وعد بالنعيم المقيم فى دار النعيم هو واحد من أصحاب العقيدة الصحيحة القوية المتأصلة ، وهو واحد من أولئك الذين وصفتهم الآيات ٥٧ ـ ٦١ من سورة «المؤمنين» ، هو كلُّ مؤمن انطبقت عليه أوصاف آيات سورة المؤمنون أو أوصاف سورة «الليل» ، وليس وقفاً على أبى بكر الصديق وحده ، لأنَّ العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ؛ ذلك لأن كل من استحق صفة «اتقى» فهو جامع ـ دون ريب ـ للصفات الأربع الواردة فى سورة (المؤمنون) أو هو داخل ـ دون ريب ـ ضمن من وصفوا بأنَّهم : من جلال الله وعظمته خائفون ، ومن خوف عذابه حذرون ، وأنَّهم يصدقون بآيات الله القرآنية وآياته الكونية ، وهى الدلائل والبراهين الدالة على وجوده ، وأنهم لا يعبدون معه غيره ، بل يوحدونه ويخلصون العمل لوجهه ، قال الإمام الفخر : (وليس المراد منه الإيمان بالتوحيد ونفى الشريك فإن ذلك داخل فى الآية السابقة ، بل المراد منه نفى الشرك الخفى وذلك بأن يخلص فى العبادة لوجه الله وطلباً لرضوانه» وأنهم يتقربون بأنواع القربات من أفعال الخير والبر وهم يخافون أن لا تقبل منهم أعمالهم ، وأنَّهم لخوفهم أن يكونوا قد قصَّروا فى القيام بشروط الطاعات والأعمال الصالحة ، ولاعتقادهم أنهم سيرجعون إلى ربهم للحساب ، روى أنَّ عائشة سألت رسول الله ﷺ عن الآية الكريمة فقالت : **﴿والذين يؤتون**

---

(٧) محمد على الصابونى ـ صفوة التفاسير جـ ٣ ص ٥٧٠ .

ماءاتوا وقلوبهم وجلة﴾ أهو الذى يزنى ، ويسرق ، ويشرب الخمر ، وهو يخاف الله عزّ وجلّ ؟ فقال لها : (لا يا بنت الصديق ولكنه الذى يُصلى ، ويصوم ، ويتصدق وهو مع ذلك يخاف الله عزّ وجلّ) أولئك المتَّصِفون بتلك الصفات الجليلة هم الذين يسابقون فى الطاعات لنيل أعلى الدرجات (٨) .

لم يَنْحُ أىٌّ من الموصوفين بتلك الصفات ذلك المنحى إلَّا لأنَّ العقيدة الإيمانية قد تأصلت فى نفوسهم ، فأشرقت وشْرَأَبَّتْ إلى الجزاء الأوفى الذى يرخص فى سبيله كل غالٍ ، ويهون كلُّ خطب .

تأصيل العقيدة بهذا المعنى أمرٌ ضرورىٌّ بالنسبة لكلٍّ مؤمنٍ ، ولكنه أكثر ضرورةً بالنسبة للداعية المسلم ؛ إذ حينما تتأصَّل العقيدة فى نفس الداعية وتتفاعل مع مشاعره ووجدانه يصبح ذا صدر رحب ، واسع يعينه على تقبُّل الفهم المغاير لفهمه بغية مناقشته بموضوعية وأمانة وتجرد .

وتعتقد أنَّه لا ضرر من الاختلاف فى الافهام طالما كان ذلك الاختلاف محكوماً بأسسٍ وضوابط ، ولا يعتبر هذا الاختلاف من التفرُّقِ المنهى عنه طالما كان مرتكزاً على منهجيةٍ وموضوعية ، وطالما كان متعلقاً بالمسائل التى وكل أمرها لاجتهاد المجتهدين عن طريق النظر فى الأدلة الشرعية والمصالح المرسلة ، أو مراعاة ما ينفع الناس دون خروج على قاعدة الحلال والحرام فى شريعة الإسلام ، ولابن تيمية رسالة قيمة فى هذا الصدد «رفع الملام عن الأئمة الاعلام» .

ومن ثم نشير إلى أن التفرُّق المنهىَّ عنه إنَّما يكون فى الاختلاف فى التوحيد ، وصور العبادات ، وعقيدة البعث والجزاء ، وجعل أساس التشريع كتاب الله ، فهذه مسائل لا يجوز الاختلاف فيها ،

---

(٨) صفوة التفاسير (بتصرف) جـ ١ ص ٣١٢ ـ ٣١٣ .

لأنها مقررة ثابتة ، أو لأنها معلومة من الدين بالضرورة .

وينبغى ألَّا يفهم من هذا أنَّ المسائل الاجتهادية يجوز التفرق فيها ، كلا ثم كلا ، ولكن يجوز فيها الاجتهاد الذى قد يؤدى بالضرورة إلى الاختلاف فى الفهم ، وكُلَّما كانت العقيدة قويةً متأصلة ، والنفوس مشرقة وضاءةً ومشرئبة إلى الجزاء الأوفى كلَّما كان الاختلاف فى الفهم عاملاً من عوامل إثراء الفكر وتصحيح المسار .

أما حينما تضمحل العقيدة وتظلم النفوس يصبح الاختلاف فى الفهم سبيلاً للتناحر والتدابر ، وذلك تلبية لروح العصبية المذهبية ، أو استجابةً لعاطفة الغرور والاعجاب بالنفس فى لحظة من لحظات الضعف الإنسانى .

هذا وقد كاد الاختلاف فى الفهم للمسائل الاجتهادية الدينية والدنيوية يفُتُّ فى عضد المسلمين فى شتى بقاعهم ، إلى جانب الشطحات التى وقع فيها بعضهم بالخوض فى مسائل لا يجوز الخوض فيها ، لأنَّها ليست من المسائل الاجتهادية ، ونعتقد أنَّ مردَّ ذلك كله إلى ضعف العقيدة ، وعدم الاستفادة من توجيهات القرآن الكريم ، ومن دروس التاريخ وعبره وعظاته ، تلك العظات التى ذكرها القرآن الكريم فى مواضع شتى ، من ذلك قول الله عزّ وجلّ : ﴿**إنَّ الذين فرَّقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم فى شىء**﴾ لم يلتفت المتدابرون المتناحرون من المسلمين إلى ما تشير إليه هذه الآية كى يتقوا الهلاك الذى أصاب من كانوا مقصودين بالآية الكريمة ، وهم المشركون الذين كانت تمزِّقهم أوهامُ الجاهلية وتقاليدها شيعاً وأحزاباً ، ثم اليهود والنصارى ممن قسمتهم الخلافات المذهبية مللاً ونحلاً .

نعم لم يلتفت المتدابرون المتناحرون من المسلمين إلى مثل هذا التسجيل والتوجيه القرآنى ، فكان ما كان ، حيث أصبحوا شيعاً وأحزاباً ، ومعسكرات وجماعات تتنافر ولا تتعاون ، وتتعارك ولا تتعاضد ، بسبب تعميق جوانب الخلاف فى كل شىء ، على حين أن هناك أموراً لا يجب الاختلاف فيها قط ، حيث لا مجال للاجتهاد فيها مثل :

١ ـ ما كان قطعى الدلالة كالدليل القرآنى أو السنة المتواترة على وجوب : الصلاة ، الزكاة ، الحج ، أو على تحريم كل من : الخمر ، الزنا ، السرقة ـ الخ .

٢ ـ ما هو معلوم من الدين بالضرورة كعدد الركعات فى الصلوات الخمس .

٣ ـ ما أجمع عليه مجتهدو الأمة الإسلامية فى ضوء ضوابط الشريعة وأصولها العامة .

وما عدا ذلك فهو مجال رحبٌ للاجتهاد ، وعندما يخطىء أحدُ المجتهدين لا يعتبر خطؤه خروجاً على الملة أو سبباً فى القطيعة والخصام ولكن يثاب على عمله طالما كان ثمرة اجتهاد مشروع ، لأن عمله عندئذ يندرج فى باب الخطأ الذى لا يعاقب عليه الإنسان ، قال تعالى : ﴿**ليس عليكم جناحٌ فيما أخطأتم**﴾ وقال الرسول ﷺ : «**رفع عن أمتى الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه**» .

فمالنا نضيّق على أنفسنا ، ونفرِّق ولا نجمع ، بسبب اختلاف فى مسائل تتعدد فيها وجهات النظر ، ويعذر فيها المخطىء ، نسأل الله أن يلهمنا الرشد والصواب ، وأن يهيىء للأمة الإسلامية من أمرها رشداً .

المصـــادر والمراجـــــع

١ ـ القرآن الكريم ، والحديث النبوى الشريف .

٢ ـ ابن تيمية ـ الفتاوى ـ المجلد الثانى والخامس .

٣ ـ ابن تيمية ـ الاكليل فى المتشابه والتنزيل ـ المطبعة العامرة الشرقية القاهرة سنة ١٣٢٣ .

٤ ـ ابن تيمية ـ مقدمة فى أصول التفسير ـ دار القرآن ـ الكويت .

٥ ـ ابن تيمية ـ منهاج السنة النبوية ـ المطبعة الأميرية ـ القاهرة .

٦ ـ ابن حجر العسقلانى ـ الاصابة فى تمييز الصحابة ـ المطبعة الشرقية القاهرة ١٩٠٧م .

٧ ـ ابن حجر العسقلانى الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة ـ الهند ١٣٤٨هـ .

٨ ـ ابن خلكان ـ وفيات الأعيان ـ المطبعة الأميرية ـ القاهرة ١٢٩٩هـ .
٩ ـ ابن قتيبة ـ تأويل مشكل القرآن ـ دار أحياء الكتب العربية ـ القاهرة ١٩٥٤م .
١٠ ـ ابن قتيبة ـ تفسير غريب القرآن ـ دار احياء الكتب العربية ـ القاهرة ١٩٥٨م .
١١ ـ ابن كثير ـ مختصر تفسير ابن كثير ـ للشيخ محمد على الصابونى ـ ط دار القرآن الكريم ـ بيروت .
١٢ ـ ابن هشام ـ سيرة ابن هشام ـ تهذيب عبدالسلام هارون .
١٣ ـ أبوحامد الغزالى ـ جواهر القرآن ـ ط ثانية ـ مطبعة الرحمانية بمصر سنة ١٩٣٣م .
١٤ ـ أحمد أمين ـ فجر الإسلام ـ ط ـ لجنة التأليف والترجمة ـ القاهرة ١٩٣٥م .
١٥ ـ أحمد أمين ـ ضحى الإسلام ط ـ لجنة التأليف والترجمة ـ القاهرة ١٩٣٣م .
١٦ ـ البهى الخولى ـ تذكرة الدعاة .
١٧ ـ الترمذى ـ الجامع الصحيح أو سنن الترمذى ـ مطبعة البابى الحلبى ١٩٣٧م .
١٨ ـ جار الله الزمخشرى ـ الكشاف ـ ط محمد مصطفى ـ القاهرة ١٣٠٨هـ .
١٩ ـ حسن البنا ـ مقاصد القرآن الكريم ـ ط دار الشهاب ـ ١٩٧٩م .
٢٠ ـ سيد قطب ـ فى ظلال القرآن ـ ط ـ دار الشروق ـ بيروت ١٩٨٢م .

٢١ ـ سيد قطب ـ كتب وشخصيات ط ـ دار الشروق ـ بيروت ١٩٨٢م .
٢٢ ـ السيوطى ـ معترك الاقران فى إعجاز القرآن ـ دار الفكر العربى ١٩٦٩م .
٢٣ ـ صبحى الصالح ـ مباحث فى علوم القرآن ـ ط الجامعة السورية ـ دمشق ١٩٥٨م .
٢٤ ـ صالح بن إبراهيم البليهد ـ الهدى والبيان فى أسماء القرآن ـ ط الرياض .
٢٥ ـ عبدالله كنون ـ الرد القرآنى على كتيب : هل يمكن الاعتقاد بالقرآن .
٢٦ ـ عبد الصبور شاهين ـ تاريخ القرآن ـ دار الكاتب العربى ـ القاهرة ١٩٦٦م .
٢٧ ـ على الطنطاوى ـ تعريف عام بدين الاسلام ـ ط مؤسسة الرسالة بيروت الطبعة التاسعة .
٢٨ ـ فخر الدين الرازى ـ التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب ـ ط المطبعة البهية ـ القاهرة ١٩٣٨م .
٢٩ ـ فيليب دى طرازى ـ مجلة المجمع العلمى العربى ـ دمشق (مج) ١٩٤٤/١٩م .
٣٠ ـ القرطبى ـ تفسير القرطبى .
٣١ ـ محمد بن بهادر الزركشى ـ البرهان فى علوم القرآن ـ دار احياء الكتب العربية ـ القاهرة ١٩٥٧م .
٣٢ ـ محمد الباقلانى ـ اعجاز القرآن ـ ط دار المعارف بمصر .
٣٣ ـ محمد البيلاوى ـ التعريف بالنبى والقرآن الشريف ـ ط دار الكتب المصرية سنة ١٩٢٧م .

٣٤ ـ محمد بن اسماعيل البخارى ـ صحيح البخارى ـ ط بولاق ـ القاهرة ١٢٩٦هـ .
٣٥ ـ محمد جمال الدين القاسمى ـ محاسن التأويل ط ـ دار الفكر ـ بيروت ١٩٧٨م .
٣٦ ـ محمد خلف الله أحمد ـ الفن القصصى فى القرآن الكريم ـ مكتبة النهضة المصرية ـ القاهرة .
٣٧ ـ محمد الخضر حسين ـ بلاغة القرآن ـ المطبعة التعاونية ـ دمشق .
٣٨ ـ محمد رشيد رضا ـ الوحى المحمدى ـ مطبعة المنار .
٣٩ ـ محمد رشيد رضا ـ تفسير المنار ـ مطبعة المنار .
٤٠ ـ محمد سعيد رمضان البوطى ـ من روائع القرآن ـ الطبعة الخامسة ١٩٧٧م .
٤١ ـ محمد شديد ـ منهج القرآن فى التربية ـ مكتبة الآداب ـ القاهرة .
٤٢ ـ محمد عزة دروزة ـ القرآن والملحدون ـ دار قتيبة للطباعة والنشر والتوزيع ـ الطبعة الثانية سنة ١٩٨٠م .
٤٣ ـ محمد عبدالله دراز ـ النبأ العظيم ـ مطبعة السعادة ـ القاهرة سنة ١٩٦٠م .
٤٤ ـ محمد على الأشيقر ـ لمحات من تاريخ القرآن ـ مطبعة النعمان ـ كربلاء .
٤٥ ـ محمد على الصابونى ـ صفوة التفاسير ـ ط دار القرآن الكريم ـ بيروت ١٩٨١م .
٤٦ ـ محمد على الصابونى ـ التبيان فى علوم القرآن ـ ط مؤسسة مناهل العرفان بيروت سنة ١٩٨١م .

٤٧ ـ محمد كامل حسن ـ القرآن والقصة الحديثة ـ دار البحوث العلمية ـ بيروت ١٩٧٠م .
٤٨ ـ محمود الألوسى ـ روح المعانى ـ ط المطابع المنيرية ـ الطبعة الثانية ـ القاهرة ١٣٤٥هـ .
٤٩ ـ مصطفى صادق الرافعى ـ اعجاز القرآن والبلاغة النبوية ـ المكتبة التجارية القاهرة ١٩٦٥م .
٥٠ ـ مصطفى محمود ـ القرآن (محاولة لفهم عصرى للقرآن) دار الشروق بيروت ١٩٧٠م .
٥١ ـ مصطفى المراغى ـ الدروس الدينية ـ مطبعة الأزهر سنة ١٣٥٦هـ .
٥٢ ـ يعقوب يوسف ـ لفتات علمية فى القرآن ـ دار العباد بيروت ١٩٥٩م .
٥٣ ـ ياقوت الحمودى ـ معجم البلدان .

الفهرست

صدر من هذه السلسلة

العنوان	المؤلف
١ ـ تأملات في سورة الفاتحة	الدكتور حسن باجودة
٢ ـ الجهاد في الاسلام مراتبه ومطالبه	الأستاذ أحمد محمد جمال
٣ ـ الرسول ﷺ في كتابات المستشرقين	الأستاذ نذير حمدان
٤ ـ الاسلام الفاتح	الدكتور حسين مؤنس
٥ ـ وسائل مقاومة الغزو الفكري	الدكتور حسان محمد مرزوق
٦ ـ السيرة النبوية في القرآن	الدكتور عبد الصبور مرزوق
٧ ـ التخطيط للدعوة الاسلامية	الدكتور محمد علي جريشة
٨ ـ صناعة الكتابة وتطورها في العصور الاسلامية	الدكتور أحمد السيد دراج
٩ ـ التوعية الشاملة في الحج	الأستاذ عبد الله بوقس
١٠ ـ الفقه الاسلامي آفاقه وتطوره	الدكتور عباس حسن محمد
١١ ـ لمحات نفسية في القرآن الكريم	د. عبد الحميد محمد الهاشمي
١٢ ـ السنة في مواجهة الأباطيل	الأستاذ محمد طاهر حكيم
١٣ ـ مولود على الفطرة	الأستاذ حسين أحمد حسون
١٤ ـ دور المسجد في الاسلام	الأستاذ محمد علي مختار
١٥ ـ تاريخ القرآن الكريم	الدكتور محمد سالم محيسن
١٦ ـ البيئة الادارية في الجاهلية وصدر الاسلام	الأستاذ محمد محمود فرغلي
١٧ ـ حقوق المرأة في الاسلام	الدكتور محمد الصادق عفيفي
١٨ ـ القرآن الكريم كتاب أحكمت آياته [١]	الأستاذ أحمد محمد جمال
١٩ ـ القراءات أحكامها ومصادرها	الدكتور شعبان محمد اسماعيل
٢٠ ـ المعاملات في الشريعة الاسلامية	الدكتور عبد الستار السعيد
٢١ ـ الزكاة فلسفتها وأحكامها	الدكتور علي محمد العماري
٢٢ ـ حقيقة الانسان بين القرآن وتصور العلوم	الدكتور أبو اليزيد العجمي
٢٣ ـ الأقليات المسلمة في آسيا وأستراليا	الأستاذ سيد عبد المجيد بكر
٢٤ ـ الاستشراق والمستشرقون وجهة نظر	الدكتور عدنان محمد وزان
٢٥ ـ الاسلام والحركات الهدامة	معالي عبد الحميد حمودة

العنوان	المؤلف
٢٦ـ تربية النشء في ظل الاسلام	الدكتور محمد محمود عمارة
٢٧ـ مفهوم ومنهج الاقتصاد الاسلامي	الدكتور محمد شوقي الفنجري
٢٨ـ وحي الله	الدكتور حسن ضياء الدين عتر
٢٩ـ حقوق الانسان وواجباته في القرآن	حسن أحمد عبد الرحمن عابدين
٣٠ـ المنهج الاسلامي في تعليم العلوم الطبيعية	الأستاذ محمد عمر القصار
٣١ـ القرآن كتاب أحكمت آياته [٢]	الأستاذ أحمد محمد جمال
٣٢ـ الدعوة في الاسلام عقيدة ومنهج	الدكتور السيد رزق الطويل
٣٣ـ الاعلام في المجتمع الاسلامي	الأستاذ حامد عبد الواحد
٣٤ـ الالتزام الديني منهج وسط	عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني
٣٥ـ التربية النفسية في المنهج الاسلامي	الدكتور حسن الشرقاوي
٣٦ـ الاسلام والعلاقات الدولية	الدكتور محمد الصادق عفيفي
٣٧ـ العسكرية الاسلامية ونهضتنا الحضارية	اللواء الركن محمد جمال الدين محفوظ
٣٨ـ معاني الأخوة في الاسلام ومقاصدها	الدكتور محمود محمد بابللي
٣٩ـ النهج الحديث في مختصر علوم الحديث	الدكتور علي محمد نصر
٤٠ـ من التراث الاقتصادي للمسلمين	الدكتور محمد رفعت العوضي
٤١ـ المفاهيم الاقتصادية في الاسلام	د. عبد العليم عبد الرحمن خضر
٤٢ـ الأقليات المسلمة في أفريقيا	الأستاذ سيد عبد المجيد بكر
٤٣ـ الأقليات المسلمة في أوروبا	الأستاذ سيد عبد المجيد بكر
٤٤ـ الأقليات المسلمة في الأمريكتين	الأستاذ سيد عبد المجيد بكر
٤٥ـ الطريق إلى النصر	الأستاذ محمد عبد الله فودة
٤٦ـ الاسلام دعوة حق	الدكتور السيد رزق الطويل
٤٧ـ الاسلام والنظر في آيات الله الكونية	د. محمد عبد الله الشرقاوي
٤٨ـ دحض مفتريات	د. البدراوي عبد الوهاب زهران
٤٩ـ المجاهدون في فطاني	الأستاذ محمد ضياء شهاب
٥٠ـ معجزة خلق الانسان	الدكتور نبيه عبد الرحمن عثمان
٥١ـ مفهوم القيادة في إطار العقيدة الاسلامية	الدكتور سيد عبد الحميد مرسي
٥٢ـ ما يختلف فيه الاسلام عن الفكر الغربي والماركسي	الأستاذ أنور الجندي
٥٣ـ الشورى سلوك والتزام	الدكتور محمد أحمد البابلي
٥٤ـ الصبر في ضوء الكتاب والسنة	أسماء عمر فدعق
٥٥ـ مدخل إلى تحصين الأمة	الدكتور أحمد محمد الخراط

العنوان	المؤلف
٥٦ــ القرآن كتاب أحكمت آياته [٣]	الأستاذ أحمد محمد جمال
٥٧ــ كيف تكون خطيباً	الشيخ عبد الرحمن خلف
٥٨ــ الزواج بغير المسلمين	الشيخ حسن خالد
٥٩ــ نظرات في قصص القرآن	محمد قطب عبد العال
٦٠ــ اللسان العربي والاسلامي معاً في مواجهة التحديات	الدكتور السيد رزق الطويل
٦١ــ بين علم آدم والعلم الحديث	الأستاذ محمد شهاب الدين الندوي
٦٢ــ المجتمع الاسلامي وحقوق الانسان	الدكتور محمد الصادق عفيفي
٦٣ــ من التراث الاقتصادي للمسلمين [٢]	الدكتور رفعت العوضي
٦٤ــ تصحيح مفاهيم حول التوكل والجهاد	الأستاذ عبد الرحمن حسن حبنكة
٦٥ــ لماذا وكيف أسلمت [١]	الشهيد أحمد سامي عبد الله
٦٦ــ أصلح الأديان عقيدة وشريعة	الأستاذ عبد الغفور عطار
٦٧ــ العدل والتسامح الاسلامي	الأستاذ أحمد المخزنجي
٦٨ــ القرآن كتاب أحكمت آياته [٤]	الأستاذ أحمد محمد جمال
٦٩ــ الحريات والحقوق الاسلامية	محمد رجاء حنفي عبد المتجلي
٧٠ــ الانسان الروح والعقل والنفس	الدكتور نبيه عبد الرحمن عثمان
٧١ــ كتاب موقف الجمهوريين من السنة النبوية	الدكتور شوقي بشير
٧٢ــ الاسلام وغزو الفضاء	الشيخ محمد سويد
٧٣ــ تأملات قرآنية	الدكتورة عصمة الدين كركر
٧٤ــ الماسونية سرطان الأمم	الأستاذ أبو إسلام أحمد عبد الله
٧٥ــ المرأة بين الجاهلية والاسلام	الأستاذ سعد صادق محمد
٧٦ــ استخلاف آدم عليه السلام	الدكتور علي محمد نصر
٧٧ــ نظرات في قصص القرآن [٢]	محمد قطب عبد العال
٧٨ــ لماذ وكيف أسلمت [٢]	الشهيد أحمد سامي عبد الله
٧٩ــ كيف نُدَرِّس القرآن لأبنائنا	الأستاذ سراج محمد وزان
٨٠ــ الدعوة والدعاة .. مسؤولية وتاريخ	الشيخ أبو الحسن الندوي
٨١ــ كيف بدأ الخلق	الأستاذ عيسى العرباوي
٨٢ــ خطوات على طريق الدعوة	الأستاذ أحمد محمد جمال
٨٣ــ المرأة المسلمة بين نظرتين	الأستاذ صالح محمد جمال
٨٤ــ المبادىء الاجتماعية في الاسلام	محمد رجاء حنفي عبد المتجلي
٨٥ــ التآمر الصهيوني الصليبي على الاسلام	د. ابراهيم حمدان علي
٨٦ــ الحقوق المتقابلة	د. عبد الله محمد سعيد

طبـع بمطـابع رابطـة العـالم الإسـلامى ـ مـكة المكـرمـة